تطرف الذاكرة

علي التل

1

في زمن القحط والجفاف العربي هذا، كنت يا ولدي أعتقد أنّني لن أستطيع يوما ان أحمل القلم وأكتب لكَ عن حياتي مع أمك ومذ غادرتني وبي بحاجة ماسة لأفعل ذلك. كل تلك الأحاسيس والعواطف المتضاربة التي عشتها قبل رحيلكَ عني وبعده أشعر أنها على وشك أن تتفجر في داخلي أية لحظة كقنبلة موقوتة. وفي هذا الصباح المنير من تموز، وهو صبيحة عيد ميلادي - لقد طبقت اليوم ثلاثة وخمسون دورة كاملة حول الشمس - أفقتُ وبي رغبة جامحة لأجلس من جديد الى المنضدة وأتلمس جراحي وأتألم، لأجمع الأوراق المبعثرة أمامي، بعضها عليها رؤوس أقلام قديمة وأخرى مسودّات أشياء لم تكتمل بعد وأما ما تبقى فهو أوراق بيضاء تنتظر منذ أسابيع لتدب الحياة فيها وتتحول الى هذه الرسالة اليكَ.

كم من مرّة أعدت قراءة أفكاري وكم من مرّة بأحاسيس جديدة وبشك جديد سألت بعجز من لا يحترف الكلام أين ينتهي الخيال ويبدأ الواقع؟ كنت أدري بأعماقي أنه أذا كان للموت نكهة حزن فهي تُعزى لأنني كل يوم ألبسُ أحلامي ومشاعري كآبة صامتة وأنا أمام هذه المخطوطات أتصفحها أحيانا بحماس وأحيانا بضجر. أن كل كلمة أكتبها اليك أكتشف أن لها تأويلات عدة، فأعيد قراءتها مرات لأتأكد من معنى ما كتبت وإذا صحّ المحتوى دّب في قلبي حنين اليك يطغى على كل الأحاسيس.

أريد ان أودعكَ مفاتيح عمري. ها أنا من جديد أفتح دفاتر الماضي المصفرّة، صفحة بعد صفحة، لأكتشف معك قصتي مع أمك وأنا أسمع نفسي أسردها اليك.

منذ أسابيع وكلمات كثيرة، عن الحب والأبوة والوطنية والواجب، تتسابق وتدور في رأسي وتتلاطم لتسبق بعضها للخروج الي حيز الوجود فأجتاز بها الصمت الى الكلام والنسيان الى الذاكرة. إن الذاكرة، يا ولدي، في مثل هذه المناسبات الصعبة، لا تأتي بالتقسيط وانما تهجم عليك كشلال عرم يجرف كل الأفكار والخواطر أمامه فتلهث خلفه ليأخذكَ الى ماضٍ في الواقع تجد نفسك لم تغادره، فيجرفك الطوفان الى حيث تدري ولا تدري.

ها أنا الآن، وحدي، أسيرُ الحبّ الأبوي. يجتاحني شعورٌ جارف بالحزن عليك، ومن حولي جدران البيت تضيق لتصبح سجنا لا يسعني وأنا أصرخ في داخل رأسي، "لا يا أبني، أرجوك، لا ترمي نفسك في التهلكة لقد وُلد الأنسان ليحيا."

ولكن عبثا. أنا واثق أنه ليس عندي حجة واحدة لأغرائك بالبقاء ستقبلها منيّ. لقد ذهبتَ غاضبا عليّ ومكابرا على نفسك وأنت في حالة تطرّف نفسي شديد مقتنع بأنك تاركنا الى حتفك المؤكد وان حججي لن تزيدك الا أصرارا على الرحيل. لن يفيد قولي لك، "يا ولدي، إنك تستبدل الراحة بالشقاء والحياة بالموت دون ان تكون مجبرا على شيء."

هل أستطيع هذا اليوم عن غيره من كل الأيام ان انظر الى الخلف دون غضب او جنون وبدون أي حقد عليكَ او على أمك؟ وقد تعجب لذلك "وتقول أيمكن ذلك حقا؟" فعهدك بأبيك ان غضبه على أمك مزمن وأن حقده عليها لا يشفى.

لكن الواقع يملي عليّ، في هذه الايام الباقية ليّ من العمر، أن أسرد الأسباب التي فصلتني عنها او أن أصمت الى الابد، وذلك بالنسبة لي، وكما تعلم، ليس بالوقت الطويل جدا، فقد نخر السرطان من كبدي الي عظامي ولم يبقي بي عضو سالما.

يوم خرجت من المستشفى قال لي الطبيب بمنتهى الصدق، "يا أبا حسن ليس أمامك أكثر من ستة أشهر والأعمار بيد الله. ان المرض الذي يصيبك يُصيب كل عام العشرات من الناس بسبب ادمانهم على شرب الخمرة. حين أتيتنا كان السرطان متفشي بك ومتقدم وقد أنتشر في جسمك ولن يفيد الآن العلاج. لكن تأثير المرض القاتل النفسي يختلف من أنسان إلى أخر، بالغالب حسب العمر والمستوى الثقافي. في مثل حالك الأنسان المتعلم يعيد النظر في نفسه ويصّفى أموره مع العالم ومع الأشخاص الغاليين عليه. كلما قرُب أجل الأنسان تغيرت نظرته الى الناس والحياة فكان أقرب الى حقيقة أمّره. في وضعك الصحي الراهن أنك يا سيدي لن تستفيد مني لأحتفظ بك في المستشفى. وللأسف، أنت لست معافى لتبدأ حياتك من جديد. عشّ وتمتع على قدر المستطاع فكل لحظة نعيشها هي كنز يبقى بذاكرة الزمان الى الأبد."

أتذكر يا ولدي، حين شُخص مرضي لأول مرّة كان مجرد بضعة شهور بعد وفاة أمك وأخيك حسن. ولما تبين أن مرضي رصاصة في القلب قاتلة، كنا، أنا وأنت وأخوك محمد، لانزال نسكن في بيتنا بأربد ولكن جدّك وجدّتك أصرا أن يأخذونا لنعيش معهما في قرية اليرموك وهي بضعة كيلومترات الى الشمال من المدينة.

آنذاك كنت أنت على وشك التخرج من الجامعة وأخاك محمد صبيا بالروضة همه الوحيد اللعب. غصب عني وفي الحقيقة أرضاءً لك، كنت أطعمه وأعتني به فوجوده حيا بيننا يمثل فشلي كرجل. أن جسدي كله يرتعد وأمعائي تتلوى أذا سمعته ينادني بكلمة "بابا". وكم من مرّة

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

فكرت بخنقه أو التخلص منه برميه في هاوية اليرموك فأنا أكرهه الى أبعد الحدود، ولولا الفضيحة والحياء منك ومن الناس لطردته من البيت رغم طراوة سنه.

لكن حبي المفرط لك في هذه الأسابيع الباقية ليّ من العمر أعاد اليّ العقل. فها أنا الآن من أجلك أحاول ان أعيد بناء علاقتي مع العالم من خلال الكتابة أليك. أننّي أختارك أنت لأنك أقرب الناس الى قلبي فأجلس الساعات الطوال خلف منضدتي أتحدث اليك عن كل ما يدور في نفسي بدون قيود مسبقة. إن مستوى الكتابة ليس مهم، ولكن المهم فيها هي أنها أداة لتفريغ وترميم داخلي.

لقد اكتشفت أن الكتابة قادرة على مصالحتي مع الاشياء ومع العالم الذي تغيّر في نظري لأنني أنا قد تغيرت واصبحت أراه من خلال عجزي. الآن أنا واثق بأن جروح روحي لن تلتئم الا بالكتابة اليك. لا شيء يهزم الجنون الا الكتابة. الواقع أنني أحببت الكتابة منذ كنت تلميذا بالمدرسة ولازالت قريبه جدا من نفسي. هي وضع اكتشفته جاهزا في اعماقي فأردت ان أخلو لنفسي وأخلو اليك فأنا قلقا عليك ولا أنام. في هذه العشيات الصيفية الندية أحيانا أسهر حتى ساعة متأخرة في غرفتي لأقرأ او لأكتب اليك بشراهة وصوت الموسيقي يأتي من المسجل خافتا يداعب أذنيّ.

أنا الرجل الذي يرحب به الموت بعد أن رفضته الحياة، أجلس بمفردي وأستغرب ممن تصاحب. فأصدقائك كانوا رجالا ينتمون الى أجيال وطبقات من المجتمع مختلفة، ولكن كلهم كانوا باتجاه ديني موحد. كنت أشاهد تعصبك وغضبك الواضح على ما كنتَ تقول إنه الكفرَ المتفشي بهذه البلد، فأندم بصمت مؤلم لغيابي عن حياتك عندما كنت بأشد الحاجة لأب يقود خطاك. أن الدين، يا ولدي، بالنسبة ليّ قناعة لا تخص أحد سوايّ والإيمان كالحبّ طمأنينة سرّية نعيشها في خلوتنا الى أنفسنا وأما الأسلام فهو معرفة النفس.

لكن علاقتي بأمك أخلت بعلاقتي معك ومع الناس ومع جميع من هم حولي. أننّي لا أريدك أن تكون مثل أمك تغلق نفسك في قوقعة هدف واحد يعقم فكرك فتصرف حياتك تنقب عن ماضي العقيدة في ساحة قضية واحدة. أن العجيب بالأمرّ أنني لم أكن يوما أتوقع أن يحصل لي كل الذي حصل فأتحول أنا الى أب شبيه بأبنه أنبش الذاكرة عن آثار أحباب بعدما فقدتهم.

كأب أخطأ في حق ابنائه، أنا مرغم أن أقول لك الحقيقة بكل ما فيها من التباس ولف ودوران. بعدما قطعت بيننا الأيام جسور الكلام لم تعد فيّ القدرة لئن أقاوم هذه الرغبة الجنونية للكتابة اليك، لأشرح لك كيف عشت معك ومع المرحوم أخيك حسن وبدونكما كل تلك السنين. في داخلي شيءٌ لا ينام، شيءٌ متواصل الجري أوصلني الى هذا الفراغ القاتل والى هذه الحياة الميتة التي أعيش أيامها مرغما. لقد كنت يوما ما رجل ينتمي الى كل المدن ويسخر من العالم ويعيد تضاريس الأشياء حسب مزاجه. وها أنا الآن أنسان مُصاب بعجز قاسي أعاقني عن

المشي وجعلني كطفل أعتمد على الأخرين وأنا أعد الايام لموتي عكسيا. هكذا ليل نهار أنا معروضا على مقعد آلي للفرجة. تتفحصني العيون وتفسرني الأفواه كيفما شأت وأنا لا أملك إلا أن أبتسم وأصغي صامتا للتعليقات المتناقضة تصل مسمعي.

يا ولدي، أنت الحب والجرح في آن واحد. أنت الذاكرة المعطوبة التي أسلط عليها اضواء ضميري وكأنني أتصرف عن حدس مسبق. كم أشعر بالرغبة في الجلوس اليك، في الحديث والاستماع اليك. ولكن كيف أقنعك بأن ذلك أخر وأعز أمنية باقية لي؟ كيف يمكن لي في دقائق أن أعرّفك بالكثير عني وأنا الأب الذي غاب عنك عظمى سنين عمرك؟ آه يا ولدي كيف تتعثر الكلمات على لساني! أيعقل ان نتحدث بعد كل هذه السنين وقد كبرت في غفلة مني وصار لك أصحاب وأقرباء تأكل السمّ من أجل المجد بمبادئ وأراء حملتكم جميعا الى ساحات القتال لتحاربوا الفرنج الغزاة. كم أود الآن أن أتأملك لأستعيد ملامح أمك فيك، في ابتسامتك وفي لون عينيك. ما أجمل لو أن تعود اليّ فأرى أمك في طلعتك! ويوما ما لم يكن أجمل من عينيها سوى عيناكَ وعينا حسن وكان ما أسعدني بكم وكم كنت أنت بالذات شبه أمك، المرأة التي كنت يوما أحترق بها ولـهً ووهمّا. كيف أشرح لك اشتياقي اليك؟ أننّي دائما في انتظارك وكما يقول الفلاحون "لابد للعائش يوما ان يلتقي"

آه وألف أه! كيف لنّا أن نلتقي وأنا الآن قدمٌ في القبر والأخرى على حافته؟ وكم مرة، بوجه مكفهر مربد وبهم متزايد، سحبت ذاك المغلف من درج المكتب وفتحته وأنا أعلم أن في داخله ثلاث شهادات ولادة، هن لك ولأخويك، حسن الكبير ومحمد أصغركم؟! وبعد أن أتصفحهن، والدموع تجري على خديّ مدرارا، أعيدهن الى المغلف ثم أودعه الدرج وأقفله بالمفتاح.

ماذا أقول لكَ لو انفردت بكَ؟ من أين ابدأ معكَ الحديث وكيف أقصُ عليك تلك القصة العجيبة، قصتي مع أمك ومع عادات العرب وعرفهم؟ هذه الصفحات ليست تاريخ اليرموك الحافل، ولكن هي تاريخي أنا فيها ... وان كانت هذه قصة مثقلة بالأحاسيس الشجنة وشعابها مغروسة بالأشواك الحادة فهي تبقى سرد لأحداث عاشها شخص عادي ... ربما أن قصة حياتي لن تثير الأعجاب لكشفي أسرار الموتى وأخطاءهم ولكنها قصة من صميم واقع مجتمعنا وقيمه ... لذلك ربما يوما ما يجد محلل اجتماعي بها أسباب لتطور تاريخ المجتمع العربي الذي جمعتني أعرافه بأمك فكنا معا عشاقا وأحبة لفترة حازمة في حياتي وحياتها.

من الذي حقا خان فينا الأخر، أنا أم أمك؟ من الذي حقا كان فينا الجاني على زواجنا وتفكيك أسرتنا، أنا أم أمك؟ أأنا الذي ادخل الظلمة الى بيتنا أم ان كل شيءٌ حولنا بدأ يدخل عهد اليأس الجماعي؟ وكثيرا ما فكرت كيف سأغريك بالجلوس معي لأسمعكَ بداية حكايتي مع أمك فأنت على علم بنهايتها. وفي يوم وداعك كان يمتلكني أحساس غريب وكئيب جدا بأنني لن أراك ثانية وأنت وحيدي الباقي لي من بعد موت حسن.

بعد كل هذه الأشهر التي مرت بنّا منذ ودعت جدّك وجدّتك على عجل ورفضت حتى ان تصافحني، لايزال هناك كثيرٌ من الاشياء التي لم نقلها بعد والتي لابد لي يوما من قولها على مسمع منك.

نظراتك المتهمة حينها كانت تقول بأصرار وعناد، "كما كنت أنت السبب في موت أمي وأخي حسن كذلك أنت متهم بمحاولة الاعتداء على حياة اخي محمد."

كنت أسمع صدي الصوت الذي كان يدوي في رأسك ويتهمني، "قاتل! قاتل!"

أنني لم أجني على أمك ولا على أخيك حسن، ولكنك على صواب لشعورك الواضح بأنه في نيتي أمنية التخلص من أخيك محمد وقد فكرت بطرق كثيره لإبعاده عنيّ. أن وجوده هو شعار فشلي كزوج وهزيمتي كرجل أمام معايير الشرف والقيم العربية. كيف لي أن أموت براحة وسلام وأنا أعلم انه سيعيش ويحمل أسمي ويرثني؟ ولأحرمه من تركتي، وهي ثروة لا بأس بها، أستشرت أشهر محامو البلد هنا في الاردن وفي الأمارات العربية، ولكن من دون جدوى فالشريعة الإسلامية لا تسمح بحرم الأبناء أو التفرقة بينهم في الميراث. ورغم الحاح جدّك وجدّتك عليّ بالكلام ظهيرة سفرك "لأشتريك من الموت" بقيت صامتا أتقلى بأوجاعي وأسراري التي من بعد موت أمك لم يعد أحد من بين البشر غيري له علما بها.

حينئذ كنت غاضبا عليك وعلى الدنيا وعلى الموت الذي تركني أحيا بعد ان أخذ مني أخاك وأمك في يوم واحد. لذلك لم أكن أشعر حينها بأي رغبة في الكلام لأقص عليك قصة أمك وأخيك محمد معي. كنت أخاف أن أفضح الأموات ويكون لذلك تأثير سلبي عليك او على نظرتك لي وتكتشف ان أباك كان مجرد رجلٌ بسيط بلا طموح أو كبرياء بوطنه او حتى ذو شهامة وشرف يطهره بسفك دم من خانت العهد.

إن حياتي لم تغير او حتى تؤثر بالتاريخ كما تريد أنت لحياتك أن تكون تماما مثلما كانت أمك تريد. الصحيح، يا ولدي، انني دائما كنت أحاول التهرب من تعليقاتك وسخريتك اللاذعة التي كنت أشعر بأنها تستفزني وتستدرجني، بحيلة الدفاع عن النفس، الى المزيد من الوضوح ثم تهرب من أمامي. في تلك الأيام كنت أنت وأنا رجلان كلانا راغبا عن الحديث. ولكن لمتي ستصر وتقاوم فضولك لتعرف المزيد عن تاريخ أبويك وهو طبعا في واقع الأمر تاريخك أنت وهويتك؟

أنني أكتب إليك ليس للدفاع عن النفس، ولكن لأقول لك ما يجب قوله وأضعك بالصورة. ان ذلك واجبي كوالد وان كنت في نظرك ونظر الناس رجل أخل بواجباته كأب وكزوج. لقد كبرت أنت وأخوك حسن ونشأتما تحت ظل والدتكما وصرتما رجلان ونحن غرباء على بعضنا ودائما كان لي معكما حديثا محتمل حتى ثُكلت بحسن ورملت من أمك في نهارٍ واحد مروع. وبعد فترة وجيزة كان حادث سقوط محمد وهو برفقتي بهاوية اليرموك غير الواضح

السبب ومن يومها وأصبعكُ يشير اليّ بالاتهام بمحاولة قتله والحقيقة أنني برئ وليّ في ذلك وجهة نظر سأشرحها في حينها.

الآن دعني أنفرد بك وحدك فأنت كل شيء تبقى ليّ. أين انت الآن يا ولدي العزيز؟ هل استثناك الموت ولم أثُكل بك بعد؟ أنت بعيد عني ولا أعلم حتى أي البلدان تضمك، وأن كنت قد نلت أمنيتك واستشهدت، لا أعلم اي الارض تأوي جثمانك. اما أنا فقد غدوتُ مقعدا أعد ما تبقى لي من عمر لن تكون السنون مقياسه ولذا هو لا يركض الأ عندما تركض دقات قلبي الموجوع لاهثا من حزن الى حزن ومن مأساة رجل يموت الى مأساة شاب يبحث عن الموت دفاعا عن كرامة قومه وفي نفس الوقت هو رجلٌ هارب من حقيقة أمره.

كنت أشهد التغير فيك وأنت يوما بعد يوم تأخذ ملامح شباب العرب الثائرين. فأنت مثلما كانت أمك، شاب بحماس وعنفوان وتطرّف أحلام تريد أن تؤثر وتغير الواقع المرير فسكنت كهوف ذاكرة تاريخ الأسلام السرية وتعطرت ببخوره. لقد ذهبت وأنت تعرف مسبقا أنك ذاهب الى الموت. وما أتعسني أمام كل نشرة أخبار حين تسري في بدني الهزيل تلك القشعريرة الحزينة. في كل معركة يومية كان لك جثة وبعد كل مذبحة أراك تدمل قي قبر مجهول.

أتذكر ظهيرة يوم غادرتنا ظهرت من غرفتك مرتدي بدلتك وقميصك الأزرق مفتوح بزرين كإثبات لكرهك ربطات العنق. لاحظت جدّتُك بيدك شنطة السفر فسائلتك، "الى أين على بركة الله، يا حبيبي؟"

يومها فجأة بدوت لي أكثر امتلاء وأكثر رجولة. شاب مربوع القامة ابيض البشرة مكتنز الملامح فصيح العينين الى حد خارق. أختفي وجهك تحت لحية كثّةمن شعر أسود قصير وخشن. تحت حاجبيكِ الكثيفين كانت عيناك الواسعتان ذاك الظهر محتقنتان بحمرة الدم تتسعان لتحويا حزن العرب كلهم. لم أستغرب كثيرا عندما أجبتَ جدّتـَك بمنتهى الجدية والصرامة وكان في صوتك شيء من الحزن المكابر، "انني سأهاجر بحثا عن الشهادة في سبيل الله، يا جدّتي." ثم بعد ثواني قليلة، وكأنك تذكرت شئيا قد نسيت ذكره، رتلت بكل بساطة الحديث النبوي، "ادع الله لنا بالشهادة في سبيله."

ولبرهة طويلة حملقت في عينيّ بنظرة ثاقبة تحمل معنى جديد وتعبير صاخب من عينيك البليغتين، نظرة أشعرتني أنك تريد قطع العهد بيننا. وبعد لحظة، وعيناك ثابتتان في وجهي تحدّقان باستهزاء واضح، أضفت، "ولذا أطلب من الله ان لا أعود وأراكم."

من اين أتيت بكل ذلك الكلام المحموم الذي كان سياطا تهري اللحم عن العظم. ورغم أنك كنت لاتزال مجرد شاب لم يجرب الحياة بعد، كنت متطرفا كأي رجل يحمل بندقية ومستعدا لاستعمالها. كان يوم سفرك للحرب ثلاثة أشهر من بعد تخرجك من جامعة اليرموك ولم يتعد سنك بعد الثالثة والعشرين وقد فشلت في أيجاد وظيفة تعجبك.

وكم أبكى جوابك الجارح قلبي يوما وكم نُحت في أعماق صدري ألما عليك. ولكن جدّتك ضرفت علنا دموعا مدرارا وقال جدّكُ رؤوفا بمشاعر زوجته، "يا حرمة الأعمار بيد الله وهي لا تتقدم لحظة او تتأخر."

أحدثت كلماتك، التي لم تكن متوقعة والتي كنت تقصد منها ان توجع هزتً البيت ومن به ثم خرجت وطرقت الباب خلفك حانقا، دون ان نفهم حينها ما كنت تعنيه بالتحديد ولا الى اين أنت ذاهب ولا متى أنت عائد. وفي ذاك اليوم الأخير، عندما كنت تقف أمامنا وأنا أحاول ان أحافظ على نبرة صوتي الطبيعية، ودعتنا كما لم تكن تودعنا كل مرة وكأنك هذه المرة كنت تعدّ نفسك الى معركة مع هول القدر.

مدججا بمصحف ومسبحة تركتني بالغموض الضبابي الذي خلفته بعدك وبقيت أنا في النافذة اتأملك وأنت تندمج مع أصحابك ومع المارة كنجم هارب ذهب لينطفئ من أجل القضية. وكم تساءلت بكثير من الذهول، "أترانا سنلتقي من جديد، يا نادر؟" كان لرحيلك مذاق الفجيعة. ما أبرد هذا الكون في وحدتي وعزلتي من بعدك.

أعادني صوت أمي من هذيان خواطري. كانت دموعها تنهمر بغزارة وتحتقن في أسفل ذقنها وانفاسها تلهث وصوتها يرتعش وهي تدعو لك بالخير والعمر الطويل. ثم قالت، ولا شك لتخفف من وجعي، "ترجع لنا ولأبيك يا نادر، يا ابن نائلة، سالما غانما بجاهك أنت يا رب يا صاحب الاقدار."

وقال لي أبي وعيناه تطلان من خلف مقلتين غائرتين في خضم السواد المحيط بأجفانه، وهو كذلك أضنه كان يحاول ان يُهون من كربي، "يا ولدي، الجبال التي كانت لا تلتقي بنوا بينها الجسور. كل شيء يتغير. السفر والبعد هما النور الذي يضئ القلب على حب الأنسان لمسقط رأسه. مهما غاب الولد مصيره ان يرجع لنا يوما ما. حتما سيعود وبه شوق شديد لأهله."

وبالرغم من الضجة التي أثارها محمد والصبية صحبه بالبيت وحوله بعد عودتهم من المدرسة، صمت ثلاثتنا بقية ذاك النهار جالسون كتماثيل اثرية محطمة امام شاشة التلفاز.

2

ولأسابيع خلت، من بعد سفرك المجهول الاتجاه، أذهلني كلامك بطريقتك الاستفزازية تلك وجرحك النفسي المكابر. لقد ملأتني كلماتك الجارحة بأحاسيس متناقضة، أحزنتني وأثارت شفقتي في آن واحد. أنني أعرفك شاب ذكي مثابر ودائما كنت تثير الأعجاب وأنا لا أزال جدا معجب بك. وأنك إن نجوت بأعجوبة من صدامك مع العدو، أتوقع لك مستقبلا باهرا

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

فقد كنت مشروعي الاخير ولذلك أريد أن يكون مستقبلك أجمل وأروع مما كان ماضيي. أريد لك وجها أخر غير وجهي وقلبا أخر غير قلبي فأنت أكثر شبها بأمك التي كم فضلتُ لو كانت امرأة عادية تقوم بأشياء عادية ولا تجاهد الا من أجل ذلك.

منذ سفرك، أذا أتى الليل لذتُ الى سريري لا يغط لي جفن من وجعي وشدة جزعي عليك وانا أحرق السيجارة تلو الأخرى وأخاطب شبحك. وكم، وأنا أمسح دموعي بأطراف أصابعي شفافة الجلد لشدة الهزل، ابتهلت الى الله أن يحفظك وأن يرعاك ويعيدك سالما اليّ. وفي الظلمة، ليلة بعد ليلة، أتصفح تعاستي وأنا أتعمق بصورتك التي في خيالي فتسري تلك الرعشة المكهربة في جسدي وتزيد من خفقان قلبي فأواصل البحث عن وجه أمك في صورتك حتى أكاد ان أحس شفتيها على شفتي وأشعر بيديها، ذات الأظافر الطويلة المطلية أحمر، حول عنقي وكأنها أمامي وليست مجرد خيال. وعبثا أحاول فكّ رموز الكلمات التي تهمس بها شفتاها المُحمرتان في عجل وكأنها تتحدث الي عنك ولست أنا الذي يتكلم الى طيفك.

وفي صباح هذا اليوم عندما أرتفع صوت الأذان معلنا حلول صلاة الفجر وصبيحة يوم مولدي كنت أسحب نفسا من سيجارة أخيرة. اليوم، ككل يوم، اكتشفت أن النهار سيكون هزيمتي، فمع ضهور الضوء تبدأ هواجسي بالتكاثر. ما أطول قائمة الاشياء التي أتوقف عندها كلما أشرقت الشمس عن يوم جديد! آه من تموز ومن شمسه! قريبا ستفرد شعاعها الحارق ليطردني من ملجأي المعتم الوحيد، ومن معارك الليل والتقلب على الاجناب الموجوعة، لتخرجني مرة أخرى من سرّية الخواطر وتضعني أمام عام أخر من عمري غير المديد. عاد يوم مولدي وهو الأخير وأنا لست للحياة ولا للموت، بل للألم فقط. بعد دقائق من اكتساح النور للظلمة، بدأت قبيلة عصافير الدُّوري التي تقطن شجرة التوت التي أمام دار جدّك، بالزقزقة ترحب بالنهار وبضجيجه وبضوئه الباهر الذي يدخل الدفء الى اعماقي قهرا عني.

أطلت اليرموك من النافذة مع نور الصباح تمتد أمامي حقولها وكرومها وزيتونها وتينها وفي الزمن العتيق كانت تكسوها غابات الخروب والبلوط التي كان ينجّرها بحارة فينقيا مجاذف لزوارقهم ليجوبوا بها البحار. تحت أنظار الجولان الشاهقة وتحت قبة السماء الزرقاء تنبسط هضبة اليرموك، مسقط رأسي، ملتحفة بالتاريخ وكل أدغاله وجروفه وممراته السحيقة، مشرفة على فلسطين، جرح الانسانية العميق الدامي. ذات يوما، قبل خمسة وثلاثين عاما، سلكت أنا هذه الطرقات المنحدرة المتلوية وكانت هذه السهول بيتي ومدرستي التي علمتني ان قدري سيكون محصورا بين المساحة الفاصلة بين الحرية والموت. كنت يوما ما أعرف هضبة اليرموك كلها عن ظهر قلب، قُرّاها ومدنها الأثرية المندثرة، وكثيرا ما كانت توصلني مسالكها المتشعبة وهاويتها العميقة الى القواعد السرية للفدائيين، وتشرح لي، صخرة بعد صخرة، الطرق العربية الأبدية التي تؤدي الى الصمود وان كل صخرة وقلعة قد سبقت الاخرى في الانخراط في صفوف المعركة. إن هذه الأرض لا تختار قدرها فقد حكم عليها التاريخ ان لا تستسلم ولذا لا يملك ابناؤها خيار الهزيمة.

وأنا هكذا أتامل في الماضي، أتى من خلف الباب المغلق صوت أمي في موعده تمام الساعة السابعة. كان صوتها نحيفا وقلقا تخوفا من أنها هذا الصباح لن تسمع جوابي. كل يوم توقظني وكأنها توقظ شخص أخر لازال حيًا غير ابنها. نادت عليّ بصوتها الحنون الدافئ، "علي، القهوة صارت يا حبيبي."

"ها أنا قادم."

أجبتها تلقائيا وكأن بي أمل أنها كانت ستنساني هذا الصباح أو على الأقل تنسى أنه يوم مولدي. أن معركتي الحقيقية مع العيش عادة لا تبدأ الا بعدما تناديني أمي وابدأ بمغادرة الفراش.

"هل أنادي أباك ليساعدك لتجلس على الكرسي؟"

قالت وهي تشق طرف الباب وتدس رأسها من ورائه وعلى جبينها قصب الحطة السوداء معقود وهي تبتسم ابتسامتها الرقيقة.

فقلت مباشرة وأنا أتصور أبي يشدّ ويتحامل على نفسه ليرفعني عن حافة السرير ويضعني على مقعد العجزة، "لا، لا داعي ان تتعبيه."

"طيب... لا تتأخر والا بردت القهوة."

أجابت أمي وهي ترد طرف الباب خلفها.

كان في جدتك شيء ما جعلها مثال الأنثى في نظري. شيء ما في عطرها السري، في صدرها الممتلئ وفي طريقتها بلف حطتها على جنب وأخفاء علبة الدخان في جيب عب شرشها الاسود. كان لها تلك الحرارة التلقائية التي تفيض بها الأمهات الأوسطيات وفي صوتها ذاك الحنان الذي يعطيك بجملة واحدة ما يكفيك من الأمومة لعمر بأكمله. ولجدتك طريقتها الخاصة للأفصاح عن حبها وشعورها العميق بالحزن على أبنها البكر الذي يقف على حافة قبره. بعد كل بضعة من الأيام تبرني جدتك بطبقي المفضل وهو مقلوبة الباذنجان ثم تلاحقه بقية النهار بالأطعمة والحلويات التي أحبُها وتصر عليّ أن أتذوقها ولكني غالبا أعتذر، فعادة ليس لي نفس بالأكل.

وبروتينية أتقنها تكرار ما يقارب العام من المرض والعجز عن المشي، تحاملت على يدي وعلى ألمي وتمكنت من رفع جسدي الهزيل عن السرير ووضع عجيزتي على كرسي العجزة ذو العجلات المدارة بمحرك كهربائي وخرجت من حجرتي وأنا أستعد لمجابهة يوما آخر.

وجدت أبي وأمي كعادتهما قد سبقاني تحت شجرة التوت. كان كلاهما على مقعده وأخوك محمد مشغول باللعب أمامهما. بعد أن صبّحتُ على جديّك، انسحبت أمي لتعود بعد لحظات تلحقها زينب، الخادمة الأندونيسية وعيناها اللوزيتان يملئهما حياء طبيعي، تحمل صينية القهوة البلاستكية وعليها ثلاثة فناجين وسكرية وصحن للبسكوت. وبعد ان تضع زينب كل فنجان امام صاحبه وبجواره ملعقة وبضعة حبات من البسكوت تنسحب وتأخذ معها محمد لتفطره وتعدّه للمدرسة وهو يحتج ويحاول أن يتفلت منها.

وأنا أرتشف قهوتي، رحت أتأمل والديّ وهما في حديث عام. في هذا الصباح رأيتهما وكأنني لأول مرة اتأملهما وأغوص في أعماقهما لأبحث عن الحد الفاصل بين إنسانيتهما وأبوتيهما. في الواقع ليس هناك حدود فأنا لأعرف إلا الشيء القليل عن طريقة أفكارهما وبعض تفاصيل حياتهما، أما اخطائهما وحسناتهما وما يدور في خلديهما فهو باب مغلق لم أحاول عبوره. هل كانت لهما يوما طموحات سّرية وما هي؟ هزائمهما ما هي؟ هل أنا كأبن كنت انتصارا لهما أم فشل ام مأساة؟ أنا أعلم علم اليقين ان كل أب، مهما كان عوزه، يريد ان يكون أسطورة لأبنائه، يورثهم أسما كبيرا ومركزا اجتماعيا مرموقا. وليس هناك أبنٌ لا يود ان يكون أبنا لرجل فوق العادي بقوته وبانتصاراته. ولكن الحقيقة إن في كل حياة خيبة ما وهزيمة ما، وتبقى أعظم انتصارات الرجل الأوسطي ابنائه. يوما بعد يوم نجلس نحن الثلاثة بنبضات قلب مشترك نُزور أوراقنا المكشوفة واحزاننا البليغة ونتربص القدر ونخلق قوانين جديدة للحب لنحتال على منطق الاشياء حتى لا يكون بيتنا الخاسر ولتكون نهايتنا أقل وجعا من البداية.

كفلاحون، كانت حياة أبي وأمي معركة لا تنتهي مع العازة والطبيعة القاسية ليوفرا عيشة أمنة لأبنائهما. لذلك لم يورثني جدّاك الخوف من السقوط ولا العيش مسكونا بهاجس الفشل فقد كانت طفولتي عادية وانا أفهم الآن ان ذاك تمام النجاح في تربية العيال. أنني الآن أحب جدّك وجدّتك أكثر من أي شخص أخر عداك فهما دائما يجدان متسعا من الوقت ليتحدثا معي عن كل شيء وألحظ في عيونهما وهن يدرسن وجهي الضاوي يتنبئن بنهايتي القريبة وتواسيان مسبقا على فجيعتي. وإذا صار الحديث بيننا وجدتهما دائما يعودان الى ماضيهما تلقائيا. لا أضنهما يتعبان من الحديث ليّ عنه، يستعيدا ما أضاعاه وما سرقه الزمن منهما خلسة وكأنهما يرفضان الخروج من الماضي ولا يطربا الا لسماع أغانيه.

وأحيانا كنت أنصت لهما يتكلمان بحسرة الأبوان اللذان يرفضان ان ينسيا ان أبنهما سيموت وهما لا يستطيعان عمل أي شيئا لأنقاضه. كانت أمي تندب وأبي يبكي بصوت أبكم. كنت أصغي لهما وانا بحجرتي فأبكي دون ان أدرك أننّي كنت ابكي معهما. لكن جرح الروح لا يلتئم مثل جرح الجسد. أن جرح الروح غائر تحت الجلد وفي أعماق الدماغ، فيما وراء العقل والمنطق. هنا، تحت الثدي الأيسر، في القلب، ينخس الألم مثل الآبرة وتركض الذاكرة الى الوراء ويتعثر لساني وهو ينطق أسمكَ أنت، يا ولدي.

بعد تناول الفطار وذهاب محمد الى المدرسة، يأخذ جدّك الحافلة كعادته الى أربد ليشتري حاجات البيت لذاك النهار ويصرف راشية علاجي الذي نفذ من الصيدلية. انشغلت جدتك وزينب بشغل البيت والتحظير لغداء اليوم وقد أصر أبي أن يكون منسفا ودبلوماسيا لم يقل، "احتفاء بعيد ميلاد علي." لكنني فهمت ذلك من النظرات التي تبادلها مع أمي. أما أنا فلجأت الى غرفتي لاستئناف معركتي مع أوجاعي وذكرياتي ولأبدأ رسالتي أليك. لقد رسا قراري أن أطلب من أبي أن يحتفظ بها لك حتى تعود وأن قسى القدر ولم تعد أن يقرأها ويتصرف حسبما يمليه عليه ضميره.

أشعلت سيجارة وجلست الي منضدتي أمام النافذة ورفعت فنجان قهوة النسكافية وأنا أتأمّل سهول اليرموك الفسيحة تحت زرقة الصيف الجميلة. رشفت ثمّا أخر من القهوة بلذة فقد بدأت أشعر أنني على وشك ان أعثر على أول جملة ابدأ بها اعترافي. جملة تقول لي أكتب اليه وقد أصبحت حرا من الذنب ومن الخجل. ابتلعت قهوتي على عجل وشرعت نافذتي لأهرب من ضيق جدران الغرفة الى السماء والى الشجر والى قرية أصبحت عالمي والى بلد أصبح بلدي مرة أخرى. ها هي اليرموك تدخل من النافذة فأسمع خطي النسوة الملتحفات بالسواد والأغاني القديمة من مذياع أمي الذي لا يتعب. هذه الأصوات الأليفة تضعني وجه لوجه امام الوطن وتذكرني يوميا بأنني من بلد عربي فتبدو السنون الطوال التي قضيتها بعيدا عن اليرموك حلما خرافيا.

في هذه اللحظة فقط شعرت انني قادر على الكتابة عنك وعن أمك وعن أخيك الحلال وأخيك الحرام. أشعلت سيجارة بعصبية ورحت انفخ الدخان والكلمات التي كانت تحرقني منذ سنوات، دون ان أستطيع ان أطفأ حرائقها فأخذت بهمة تتسابق من رأسي الى الصفحة. أنني لم اكتب يوما شيئا يستحق الذكر، ولكنني لأجلك سأبدأ الكتابة فأنا الآن مخطوف برغبة جنونية للحديث اليكَ. أن الكلمات تركض لاهثة من رأسي من صفحة الى أخرى وكأنني أريد أن أبوح لك عن كل شيء يربطنا من خلال هذه الرسالة. سأعترف لك اليوم بكل شيء وأستعيد قصتي مع أمك فصلا فصلا. وانا أسرد اليك قصتي وهي بالتالي قصتك، لابد أن تعي أنك لن تفهم شيئا من الماضي الذي تبحث عنه ولا عن ذاكرة أب لم تعرفه إذا لم تفهم العرب بعرفهم وعاداتهم ومعايرهم وحرصهم الدامي في حماية العرض والوطن.

أننا لا نكتشف ذاكرتنا ونحن نتفرج على لوحة من الماضي نحن نملس حقيقتنا عندما نملس حقيقة من نحن والى ماذا ننتمي. ولأعّرفك بخفايا نفسي وتطرّف أفكاري، الحقيقة، يا عزيزي، بالنسبة لي فضفاضة ولا أستطيع الجزم تماما ما هي. أن كل ما يحدث في حياتك وفي حياتي وحياة جميع البشر مهما جهدنا في وصفه بدقة وبأمان ورغبة منا في البوح بالحقيقة الى أقصى حدودها، فلا أحد يستطيع التأكد من أنه يقول الحقيقة المطلقة حتى ولو زعم بعين قوية أنه لا ينطق بشيء سوى الحقيقة. الحقيقة أصلا هي وجهة نظر وقت الإفضاء بها.

أن لحظة الإفضاء والبوح دائما انحيازية ونفسيا محرجة والمفضي بها هو أسير رغبته المكبوتة في تلك اللحظة المجردة لمجرد أنه أقترب من مناطق أشواك ضميره وكان مسبقا يحجم عن الخوض بها كي لا يخرج مجروح الجسد والروح. أن الحقيقة البسيطة السطحية المواتية لقدرتنا على الأدراك واستشفاء ما وراء أفعال وأقوال الأخرين هي كذلك السبب المؤدي الى التعقيد وسوء الفهم والخسارة. فالحقيقة الحقيقة هي مجاز كطبقات الاستنارة الذهنية كلما قويت بصيرة الأنسان أخترق طبقة أخرى تبدو له في تلك الحظة بؤرة الحقيقة. حتى وأن قويت بصيرة الفرد وكان بصره سديدا بأحدث أدوات العلم والتكنولوجيا التي تمكنه من رؤية عمق الأشياء وكل ما في الكون مما هو مرئي أو غير مرئي لن يكون وصولا الى الحقيقة فهي متقلبة الأطوار تعتمد على أحساس وشعور صاحبها في لحظة الأفصاح. على سبيل المثال أن ضوء الشمس الذي نرى به الأرض وكل شيء أخذ ثمانية ألف سنة ليخرج من لبّ شمسنا الى سطحها ثم ثمانية دقائق فقط ليصلنا وينير عالمنا المشدود اليه بقوة الوجود. أخذا بالاعتبار كلما سبق قوله سأحاول قدر طاقتي البشرية أن تكون الحقيقة فيما أقوله في هذه الهنيهة هو بالفعل ما قد حدث أو كان وراء ما حدث بين أمك وبيني كما أتذكره.

3

لابد أنكَ مشتاقٌ لتعرف كيف ألتقي والداك. أن في الحياة مصادفات مدهشة والحب يقع دون ارادتنا، هذا لذته وألمه في آن واحد. لقد كان يوم لقائي بأمك يوما مذهلا حقا وكان القدر فيه الطرف الأول. كيف لا وقد أتى بي دون موعدا مسبق الى حفل زفاف أخيها الصاخب في قاعة النادي العربي للأفراح بأربد. كنت في ذلك المساء الأوسطي العليل مع شلة من الرفاق نتمشى بشارع أيدون حينما صادف أحدنا صديق له يقف مع زمرة من المحتفلين على رصيف الشارع أمام قاعة النادي فميّلنا نسلم ونبارك بالعرس فأصر علينا ان ندخل لنتحلى بحلواه، ولنجامله دخلنا. في وسط ذاك الصخب والفرح ما الذي قاد خطاي لأتقدم رفاقي الى تلك الزاوية من القاعة الى يمين المدخل ثم أوقفني وأوقف نظري طويلا أمام وجه نائلة السعيد المبتسم تقف في زمرة من البنات؟

أنني لم أعد أذكر من الذي أهتدى اليها أولا عيناي أم قلبي. كانت تتقدم نحوي وكأن الزمن توقف انبهارا بها ويومها كنت أنا الزائر الباحث عن الحب وهي المُضيفة الفضولية على أكثر من صعيد. كنت شابا يشعر بالضعف تجاه الفتيات قادرا على ان أحب او أكره من النظرة الأولى. وبرغم ذلك لست من الحماقة لأقول لك الآن أننّي أحببت أمك من النظرة الأولى. أجل! كان في عينيها الباسمة شيء ما قديما كنت أعرفه. ذاك الشيء الأليف هو الذي شدّني الى ملامحها والتي كانت محببة اليّ مسبقا، وكأنني منذ ولدت كان مقدرا لي ان أحب امرأة تشبهها تماما. كان وجهها المستدير الجميل يطاردني من بين كل الوجوه. فستانها الأحمر الذي تلوى بأناقة حولها ليطوي برفق قوامها الممشوق ويحتضن ثدييها الثقيلين ويلتف بلطف حول خصرها النحيل. فجأة أصبح لون فستانها الياقوتي يدهشني ويشد فضولي.

لم تكن هي وحدها من ترتدي فستانا أحمر ذاك المساء في تلك القاعة الفسيحة التي تعج بالأنوار البرّاقة وعامرة بالفرح والهرج والغناء والرقص، ولكن فستان نائلة وحده كان ياقوتيا. هل يولد الحب من لون لم نكن نحبه بالضرورة؟ فقبل تلك المناسبة لم يحدث ان أنحزت الى اللون الأحمر والحقيقة أنتّي كنت أكره الألوان الحاسمة. لكنني منذ ذلك اللقاء أنحزت الى اللون الأحمر وخصوصا الأحمر الياقوتي دون تفكير. ربما لأن الأحمر عند ما ينسدل عليه شعر بنفسجي طويل حالك تتماوج ضفائره بأنوار قاعة الأفراح الساطعة يكون فد طغى على كل الألوان. مازلت اتساءل بعد كل هذه السنين كيف أصف حبها اليوم؟ أنه الزلزال الذي لم أكن أتوقعه، أنه الحبر الذي أخط فيه قصة حياتي اليك. الآن فقط بدأت تدريجيا أفهم العلاقة التي ربطتني بأمك وباللون الأحمر، لون الخطر. أنه اللون الذي كان متواطئا معها وكانت هي دائما قادرة على استحضار غموضه بكل أشكالها.

وقال الصديق الذي عزمنا يعرفني عليها، "الأنسة نائلة، أستاذة لغة عربية. الأستاذ علي، مدرس لغة انكليزي."

أندفع الدم في عروقي وأحسست سخونته في جمجمة رأسي. قلت وكأنني أواصل معها حديثا كان قد أنقطع، "خدمة المجتمع هو ما ساقنا للتدريس وليس التدريس بالضرورة مهنة مقدرة حق قدرها في أي مجتمع بشري."

نظرت الي بشيء من الدهشة وقبل ان تقول شيئا كانت عيناها العسليتان تكتشفان في نظرة خاطفة مغائر قلبي. مدت يدها نحوي مصافحة فأخذتها براحتي وهززتها مسلما أو مستسلما؟ أجابتني بحرارة وجرئة واثقة فاجأتني، وكان كل ما فيها مشع آسر، "يا أستاذ علي، التعليم هو المهنة الوحيدة التي لا تنافس فيها المرأة العربية ذكورة الرجل العربي."

ثم بكثير من اللباقة سحبت يدها من يدي التي كانت تشد عليها ربما دون ما أدري. رفعت عينيها نحو وجهي وابتسمت لي فعبرت قشعريرة غامضة جسدي. تصفحت ملامحها مأخوذا مرتبكا وكأنني أتعرف عليها وأعرفها منذ زمن بعيد في آن واحد. كانت عيناي تلتهما جسدها وتتوقفان طويلا عند كل شيء فيها وكأنني لا شعوريا أختزن صورها لوقت لن يكون لي فيه منها غير الصور. لم تكن نائلة باهرة الجمال، في الواقع كانت فتاة عادية المظهر. لكن كان هناك سر ما يكمن في سمرة وجهها المبرج، او ربما في عينيها الواسعتين او في حاجبيها السميكين او ربما على جبينها العالي او في شفتيها الملآتين المرسومتين أحمرا داكن يقارب لون فستانها.

لقد أذهلني اكتشاف وجود الفتاة التي كان قلبي يألفها قبل ان أتعرف عليها في حفل العرس ذاك. في الحقيقة خفت من عينيها ومن نظرتهما الثاقبة التي كانت تتبعني بشيء من الدهشة التي زادت من ارتباكي. كان ذلك التبادل القصير هو بطاقة تعرف أبويك. وبقيت أمك بالنسبة ليّ طيلة عمرها لغزا لم تزيده التفاصيل الا غموضا.

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

ربما كان لقائنا الأول عشرة دقائق لا أكثر تكلمت أنا فيها دون وعي وكأن وجودها أمامي قد أثار شهيتي للكلام. كنت في الواقع أحاول أن أستبقيها بكلمات النقاش وكان كل شيء معها قابل للجدل. وفي النهاية لشدة ارتباكي نسيت ان أمنحها فرصة لترد علي وكان ذلك حماقة مني كم ندمت عليها فيما بعد. بقية ذاك المساء والأيام التي خلت بعده استبدت بي رعشة الحب وأحساس أكثر من رائع. ربما كان سبب رجفات جسدي هو توتري النفسي وقلقي بعد ذلك اللقاء العجيب، ولكنني واثق بأن الحب هو الأخر سببا.

وضعت دائرة حول تاريخ يوم لقائنا: 21تموز1978 لأميزه عن بقية ايام عمري ولم يكن فيها حتى لقائي بأمك ذاك المساء العجيب ما يستحق التميز سوى أن تموز كان الشهر الذي ولدت فيه كذلك. كنت حينها خمسة وعشرين عاما وكان لي عامين أشتغل بالتدريس بينما كانت أمك اثنان وعشرون ولتوها قد تخرجت قمة صفها من دار معلمين حوارة ذاك الصيف.

كان لقائنا أكثر من مصادفة، انه قدر عجيب، انه تقاطع طرق. الحب الذي تجاهلني كثيرا قبل ذلك اليوم قرر أخيرا ان يهبني أجمله وألذه، ياسمينة عطرة تفتحت على عجل. أحببت طلة نائلة الباسمة وكل تلك التفاصيل التي تعلق بالذاكرة، رائحة عطرها، تماوج شعرها، هفيف فستانها. ولأيام بعدها رحت أتسرق اخبار نائلة حتى تمكنت من الحصول على رقم هاتفها. وبعد بعض التردد اتصلت بها ولحسن الحظ ردت هي علي وتجاوبت معي وكأنها كانت في انتظار مكالمتي فأخذت منها موعد. التقيت بها عدة مرات بعيدا عن العيون في مطعم او مقهى على شارع أيدون. أمام فنجان قهوة او زجاجة ببسي جلسنا ندخن السيجارة تلو الأخرى. ربما لم يكن لنا نفس الظمأ للحب ولكن كانت لنا الرغبة نفسها بالحديث وأنا اتأملها بسعادة من يرى نجمه الهارب أخيرا يجلس أمامه. وفي لقانا الأول، وكنت سعيدا ومرتبكا معا، لفرحتي بلقائها تراني قلت كلاما غير مترابط وأكثر مما يجب قوله. ثم هدأت نفسي وقلت متعتعا لأكسر صمتها، "أتدري، يا أنسة نائلة، انني أعرف الكثير عنك."

اجابتني بصوت برئ متعجبة، "وماذا تعرف مثلا؟"

فقلت وقد ملأتني عيناها غرورا وزهوا ذكوريا، "أشياء كثيرة أولها أنك لا تخلفين الميعاد."

تأملتني أمك لبضعة ثواني راحت خلالها عيناها العسلية تدرسان ملامح وجهي بجدية ثم قالت، "لم يكن موعدنا يقينا يا أستاذ علي. كان مجرد احتمال موعد فقط."

أجبتها أشعر بسعادة مطلقة وأقول أكثر مما كنت أريد ان أعترف به في لقائنا الأول، "كان قدومك يقيني المحتمل. يقال إن الاشياء الجميلة تولد احتمالا! أحب إن جزمت على شيء أن التزم به. وأنا أجزم أنك الفتاة التي ستكون يقيني."

قالت بأصرار أنثوي لتكون لها الكلمة الأخيرة، "هذا افتراض محتمل!"

فجأة انفرجت أساريرها وضحكنا معا. تحدثنا ونكتنا وضحكنا من جديد كثيرا. كانت يومها السعادة ثالثنا. في الحقيقة كنت أتوقع لحبي بداية درامية فيها الكثير من التعقيد والعذاب وحمى البال كما في القصص والأفلام وكنت قد أعددت أقولا ومواقفا كثيرة كلها اختلفت عما كان يحدث في لقاءاتنا. بعد كل موعد معها تعوّدت أن أُعيد في خيالي ما قالته وأصنع منه حورا أخر أضع عليه أنا التعليقات المناسبة لحوار كنت أعددته وكلام أنثويا حلواً لم تقله لي أمك بعد.

في تلك الأيام كنت سعيدا وكأنني أضحك لأول مرة منذ سنوات. دخلت نائلة حياتي كشعاع الشمس فأدخلت الدفء تحت ضلوعي وأبقته هناك فغدت خفقة قلبي وفلذة كبدي التي في أحشائي وكلمة الحب التي في كل قصائدي. أصبح أسمها نغمة موسيقى تـُعزف على اوتار فؤادي وأنا الوحيد في الدنيا الذي يسمعها. صارت نائلة المرأة التي كنت أريد أن أضحك معها وأبكي معها.

كانت نائلة دائما تلقائية في مرحها وفي تصرفها. وبعد كل لقاء صار كل شيء بيننا أسهل. كانت أمك فتاة تحب النقاش بالسياسة، مليئة بالأفكار عن المرأة العربية وعن حقوقها المهدورة وراحت تشرح لي بعض الضيم الذي تلقاه النساء في المجتمع العربي وأحيانا كانت جادة وجريئة وبصراحة تنتقد تفضيل الدين الاسلامي للذكر على الانثى وتصر على انها ليست ضلع أعوج. رفقا بمشاعرها لم أذكـّرها في حينها أن كل الأضلع عوجاء. كانت تتكلم وشعرها يهتز بثقة فوق كتفيها وكأن قوة خفية ترفعها فوق الناس والعامة.

حدثتني بصراحة عن المرأة العربية التي ترقد أسيرة في أعماقها ولم تذق بعد طعم الحرية، "أتعلم يا علي، أننّي كفتاة عربية لا أملك حتى جسدي. المجتمع الرجولي العربي بذكورته حدد حدود أنوثة المرأة. فأنا لا أستطيع ان أعطي نفسي لرجل أحبه دون ورقة مختومة بإمضاء ولي أمري ومبلغ من المال... مهر وخاتم يعني... الزوج هو الذي يدفع فاتورة الكهرباء وثمن السرير وأجرة البيت. الذكر العربي لا يعرف قيمة المرأة التي لم يدفع فيها ثمنا غاليا. كلما أرتفع ثمن الزوجة ارتفعت قيمتها. أنا قيمتي تعلو فوق كل العقارات والمال. أنا لست سلعة للبيع والشراء. أنني لست كأي فتاة في مثل سني. هل أكذب نفسي وأدعي أنني لست أحادية المزاج والهوى؟ أنا لا أستطيع أن أتوارى وأستحي مما أنا. أنا لي طموحات وأمال."

تبعثرت لغتي أمام لغة نائلة الرصينة الجادة والتي لم أعرف من اين كانت تأتي بها، فلم أسمع مثلها من أية أنثى من ذي قبل. لم يكن يسعني الا ان أوافقها الأراء فقد كانت صادقة بما تقول. كنت أستمع لها بانبهار ومتعة وفي حينها لم أكن بعد منتبها لنزعتها السيادية فيما تقول ولا طبيعتها القيادية فيما كانت تفعل وأنها مميزة عن الناس العاديين. كنت أستمع لها بحماس،

وبدل أن يثير كلامها مخاوف رجولتي من أية نزعة سلطوية أنثوية قد تسكنها، رحت أنقاد لجمال أفكارها فقط. من دون كثير من التفكير كمعجب أنحاز لمثالية أراءها.

قلت لها بجدية مشجعا، "يسعدني الاستماع لك. كل ما تقولينه جميل وصحيح، يا عزيزتي."

يومها ناقشتها طويلا، ولكن للأسف دائما لم يكن هناك وقت كافي للحديث عندما كنا نلتقي فقد كانت لقاءاتنا قصيرة مختطفة كما تملي معاير المجتمع. كنت كعجينة في يدها تأخذ فجأة شكل قناعاتها وشكل طموحاتها وأحلامها. أزداد تعلقي بنائلة بعد كل لقاء بشهية شاب عربي لم يعرف الحب من قبل وأتوهم نفسي بطل أحلامها. قبل أن ألتقي بأمك كنت أعيش حياة هادئة في قرية اليرموك ولم تكن لي أحلام فوق العادة أو طموحات فوق العادة. كنت سعيدا مكتفيا بدخلي البسيط ونادرا ما لبست بدلة او ربطة عنق.

ولما صرنا أنا وأمك نلتقي لم أكتف ببدلة واحدة، بل صار عندي عدة. في كل موعد لنا كنت أرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق زاهية الألوان تفوح مني رائحة العطر وأنا أنتظرها قبل الموعد أسبق الساعات وأسبق الزمن وأحلم بما سيدور بيننا من حوار.

وكم كان يسعدني أن أنتظرها، يوما او أسبوعا بأكمله، فسعادتي كانت شاملة وكان هناك لذة جميلة في التخوف من أنها قد لا تأتي يوما لسبب ما. كم كنت أهوى رؤيتها وهي تمشي صوبي وحقيبة يدها بلون حذائها ذو الكعب العالي فتبدو في غاية من الاناقة والجمال - وجهها الأسمر المستدير، عيناها المكحلتان وكأنها حورية نزلت من السماء إلى الأرض لتحقق أحلامي. وعندما تكون قبالتي كانت تنفرج شفتاها الياقوتيتان عن ابتسامة ودية لتحييني وتفتح لي ابواب القدر. كنت أشم رائحة أنفاسها في كل مكان أزوره، في كل شارع أمر منه، مذاق قبلتها كان أمرا يشغل بالي ليل نهار. كنت أشتهيها بشكل فاضح ولم يهمني من يعرف. كنت أجلس كل ليلة وفي حلقي تلك الغصة التي لازمتني طوال أيام غزّلنا لأكتب لها قصائد عن دهشتي وغيرتي وشوقي اليها او أقص عليها تفاصيل يومي وانطباعاتي. كم من الرسائل كتبت لها وانا أخترع كلمات تفجرت في رأسي لم أقلها لامرأة من قبل. كنت قد كتبت رسائل لفتيات عبرن حياتي في سنين المراهقة والشباب الأول، ولكنني حينئذ لم أكن أجهد نفسي في البحث عن الكلمات. أيا تُرى بدأت من حينها أعشق اللغة العربية وتعاريفها واحاتها لأكتب هذه الرسالة إليك دون أن أدري والتي لابد لي أن أكتبها قبل أن يتسلل المرض الى دمي ويقتلني؟

وفي عشية، وهي على وشك النهوض لتذهب وتودعني، رفعت رأسها تبتسم بسمة ملغزة مفعمة بالدفء ثم أنحنت صوبي وفجأة وضعت قبلة خاطفة على خدّي. توقف الزمن وتوقف الكون لحظتها عن الدوران. لقد توقف كل شيء من حولي. كان يمكن أن أحتضنها وأرد عليها بألف قبلة وقبلة، ولكنها خلال أقل من الثانية كانت قد اختفت من المقهى قبل أن أسترجع

هدوءي. لشدة دهشتي هبطت ثانية على مقعدي مشلول الحركة وطلبت من النادل فنجان قهوة أخر فلم أكن في وضع يسمح ليّ بالخروج.

حتى الآن لازلت أتساءل، "لماذا ذاك المساء بالذات خطر لها أن تقبلني وخدها محرما على شفتيّ لمسه؟"

شعرت يومها أننا ندخل مرحلة أخرى جديدة في علاقتنا وأن نائلة بقبلتها تلك قد أعلنت حبّها. وبدأت أشرع باب المستقبل وأحلم أنني أخيرا سأجلس ليس قبالتها، بل الى جوارها في مكان هادئ أستنشق جسدها دون أن يكون هناك شاهد على قبّلنا وتقلبات مزاجينا ونحن نتحدث من غير أن تلاحقنا فيه عيون رواد المقاهي ولا أعين المارة. فبينما قلبت قبلتها تلك حياتي رأسا على عقب، الآن أظن أن ذكرى تلك القبلة الأولى لم يستوقف نائلة طويلا. كانت تشجعني فقط لأقدم على المرحلة التالية من علاقتنا وهو أن يتقدم أبي من ابيها ليطلب لي يدها.

4

ولكن ليس الآن في الوقت متسع لأسرد عليك كل فصول أيام تودّد وغَزَل أبويك والتي أصبحت متقاطعة مع قصتك. سأقطع جسور الكلام وأقول إن فترة خطوبتنا كانت قصيرة وسرعان ما تزوجنا وأنا أجهل أنني أفتح أبواب المستقبل على مشاريعها للعواطف والزوابع العاتية لتعصف بقلبي. بعد عام أنجبت أمك اخاك الكبير، حسن. وبالمناسبة، نعم لقد البستها يوم الخطوبة دبلة أنا الذي ابتاعها وهي التي اختارتها ودفعت في أمك مهرا مقدما وأن كان رمزيا، ولكنني تحت أصرار أبوها، أمضيت عقدَ مؤخر كبير، قيمته خمسة عشر ألف دينار حسب تقاليد الوسط الاجتماعي التي ننتمي اليه.

في أمساي الصيف اللطيفة كنت أحب أن أصطحب أمك في مشاوير على شارع الحصن. ذات مساء صيفي خلاب مرصعة سماءه اللازوردية بالنجوم الماسية اللامعة وودّ بدرا كامل الاستدارة يشع ضياءً فضيا فوق أربد وينيرُ دروب العشاق، كنا أنا وأمك نمشي الهويدا وهي تدفع عربة طفلنا حسن أمامنا. فجأة وبدون مقدمات، أسرّت لي باعتراف عجيب، "لا أعرف لماذا يا علي، منذ كنت طفلة وأنا أخجل أن أدع أحدا يرى دموعي وكأنها عورة أخفيها عن الناس؟"

سنون بعد ذلك الاعتراف الصعب أدركت أن من لا دموع لهم هم الجبابرة.

في سنوات زواجنا الأولى كان حبي لأمك مستحوذا على كل أفكاري. فاذا حدثتها أخترت جملي بكثير من الذكاء لأشعرها بثقل الصمت الذي تملئه الكلمات التي في بالي ولم تقال بعد. منذ البداية كنت تحت وقع أرادتها وتصرفها فقد كانت هي دائما سيدة الموقف. لم أرد يوما ان

أنفق وقتي معها بمجرد الكلام والعتاب والمشاجرة فعندما كنا معا كان الزمن، بالنسبة لي، للفرح فقط.

كم جهدت ان أشعرها بزلازلي الداخلية لأضرم النار في غرامنا واضمن اشتعال نيران حبها. كان دائما في حديثي معها شيء من المرح والشاعرية معا. كانت هناك تلقائية في حبي لا نقش فيها ولا زخرفة وفي قلبي سذاجة تجاور بساطة الطفولة. كانت تمنحني أمك من الحب ما يكفيني فقد جمعتنا علاقة زوجية ناعمة متينة كخيط الحرير واعتقدت حينها انه سيمتد الى الأبد.

ربما كان ذاك الأدراك ما أفزعها فأصابها الملل وصار ينالها السأم من التفكير بالأشياء الدائمة وكأن في أحشائها حب دفين للمغامرة. ففي بداية حياتنا الزوجية كانت نائلة تملك القدرة الخارقة على التفكير الجدي دون ان تلغي حضورها الأنثوي الدائم في حضوري.

وفي عز دلعها صارت تغني لي، وفي عينيها نظرة مثقلة بالوعود والاغراء، اغنية قديمة للمطربة صباح "انا أستاذة مرة أستاذ."

فارد عليها كما علمتني، سعيدا ومبتهجا، "انا أستاذ وامراتي أستاذة."

ثم معا نقول ونحن نضحك بشدة وجنون، "واعطينا الهم اجازة."

كانت ضحكتها ترن في أرجاء الدار صافية رقيقة كرذاذ المطر تصعد من قلبها واعماق صدرها العالي. في بدأ حياتنا الزوجية معا كنت في صبيحة كل يوم دوام، بعدما نودع حسن بالحضانة، أوصل زوجتي بسيارتنا التويوتا كرولا الحمراء الى مدرستها. كانت أمك تودعني بنظرة أخيرة باسمة أنثوية تكون زادي كل ذاك النهار ويكون كل شيء أسهل عليّ وانا ألوح بعصا الخيزران (طويلة ورفيعة كما الكرباج) في وجوه الصبيان او السع بها اردافهم وأنا طيلة الوقت اقارعهم كيف يلفظون الكلمات الانكليزية. كان في نظرة أمك لي وهي تغادرني وتطرق باب السيارة خلفها، شيء من الغرق اللذيذ المحبب الى نفسي فأنتظر في مكاني لأراقبها وهي تبتعد عني تدريجيا بخطوات انضباطية وتختلط بالبنات وهي ترد بأدب صارم على تحياتهن ثم تلتقي مع زميلاتها المعلمات ويدخلن معا باب ساحة المدرسة. بالنسبة ليّ كانت نائلة أنقية في ذهابها كما في قدومها مثل فراشة متألقة. وفي كل فراق صباحي كنت أعي بقناعة ان حياتي مكتملة.

ونحن في قمة السعادة أخذت على راتبي وراتب أمك قرض من البنك واشترينا البيت الذي كنا نستأجره في حيّ جرن الغزال وكان ذلك قبل أن ترتفع أسعار البيوت بأربد بذاك الجنون الذي لا يفسر بسهولة.

كنت سعيدا حينها. فلقد وصلت الى تلك الطمأنينة النفسية التي لا تمنحها سوى راحة الضمير والضمان المادي. ولمدة طويلة جدا كنت أعتقد ان ذلك ذروة الحب وأمر باستنتاجات كثيرة متناقضة. مرّة يبدو ليّ أن حب أمك ليّ قصة حقيقية كانت مقدرة منذ بدأ الكون كحب بعل تموز وعشتار التي لحقته الى الدنيا السفلى وأنقضته من بين براثن موت. وأحيان كنت أشعر ان حياتي معها أسطورة جميلة كأسطورة أدونيس بعل وعشتروت الربة التي غيّرت مقاييس الحب واللذة حسب مزاجها المتقلب.

لكن في تلك الأيام لم أكن بعد خبير بنفسية زوجتي وما كان فعلا يسرّها او يحزنها. لم أكن أعي وقتها ان القدر كان يتربص بي. الآن فقط وأنا أقترب من نهايتي وأنا أسطر لك هذه الرسالة، بدأت أفهم أن زوجتي كانت كما الربة أناث، الالة التي كانت تتلاعب بالكلمات وتراوغ بعل بأنوثتها كعادتها ثم تقف بعيدا لتتفرج على وقعها عليه وتسعد سرّا باندهاشه الدائم أمامها وانبهاره بقدرتها المذهلة في خلق لغة الغنج التي تتماشى مع مشاعره. وأحيانا كانت كلمات الحب تخرج من فيه نائلة شحيحة كقطرات الماء وكنت أشعر آحيانا أنها كانت تكلمني مجاملة او عن ضجر او ربما بنّية غير معلنة لغور أعماقي وكشف ما كان يدور في خلدي من أفكار وأحاسيس لتتلاعب بيّ

كنت أثناء تلك الحقبة من زواجنا أتسأل، "أتراها الى تلك الدرجة واثقة من حبي؟ ألهذا لم تكن بحاجة لتسألني، ولو مرّة واحدة، عن عمق مشاعري تجاهها؟"

الآن فقط بدأت أفهم ان صوتها المتأجج بالفرح حينذاك والذي صوّر لي أقبالها على الحياة، كان في الواقع يؤكد اكتئابها، وأن أحساسها بالمرح كان يزيد من شعورها بالحزن والشعور بالنقص. الآن بدأت أفهم أن الزواج لم يحقق ما كانت تصبو اليه نفس نائلة فقد كانت فجأة تزحف عليها الخيبة كالهواء البارد فترتجف اطرافها وتتوتر نفسيتها من سلوك طريق الزواج المسدود.

فبينما كنت أنا أريد زوجة وحبيبة كانت أمك تبحث عن صديق وحبيب بهذا الترتيب. صار بحثها عن منطق لحياتها يزداد تعقيدا ولابد كانت تراودها أفكار غريبة لا تنتمي لعالم أسرتنا. أحيانا كنت أستيقظ من النوم فأجدها تجلس على طرف السرير متوترة وبين شفتيها السيجارة مشتعلة تمصّ عليها بنهم شديد ثم تنفث دخانها بضمير غير مستريح.

كنت أسمع أنفاسها تعلو ثم تهبط فيخطر لي أن شيئا ما يدق في رأسها، أسألها، أحاول اكتشاف أمر لا أراه، "ما الخبر، يا حبيبتي؟ هل أنت بخير؟"

كانت لا ترد ولو ببنت شفة. فقط تلمحني بنظرة خاطفة أرى فيها لمعة الخيبة ثم تطفئ السيجارة مباشرة وتندس بالفراش وتنقلب على الجنب الأخر وتعطيني ظهرها. كانت تتمدد جواري وملمس ثياب نومها الناعم ورائحة عطرها يزيد من شبقي فأمرّ بيدي على شعرها

الأسود الطويل المبعثر على الوسادة فترتعش كطائر بلله المطر ولا يستجيب جسدها لنداء جسدي.

كيف حدث هذا؟ ما الذي أوصلنا اليه؟ كيف هدأت ضحكة أمك الرنانة وألت الى شبه ابتسامة مقتضبة تخرج مبتورة ومكتومة؟

ثم أتيت أنت وسمتك أمك نادر - أسم عادي ولكن قليل الاستعمال. كنت أنت تقطه الفصل. بدأ يتغير سلوكها بشكل ملحوظ. تحت الضوء صار في عينيها فجأة لون أخر وهما يتأملان ملامح وجهي وكأنني غريب رأته لأول مرّة.

بعد وصولك بأربعين يوما بدون أنذرا مسبق قالت، "علي، يكفينا من العيال حسن ونادر." وهي تعلم كم كنت أتمنى لو كان لنا بنتا لأدللها.

كدّت ان أجيبها وأنا أواصل فكرة سابقة، "ما حدث لنا، يا أم حسن؟" ولكني أخفيت ارتباكي وقلت بتكبر ذكوري وأنا في الواقع أحاول تجاهل ما قالته، "كل شيء من الله مليح!" ثم أضفت بمسحة حزن بطريقة أستاذ يريد ان يحير تلميذه، "ليت الأمر بيدي، يا عزيزتي!"

ولوقت طويل بعدها توقف مسمعي عند، "يكفينا من العيال حسن ونادر."

كان تصريح أمك ذاك جاد وليس للعاطفة فيه مكانا فأصبح شوكة انغرست في قلبي من يومها. مباشرة، كأنني كنت أعمى وفجأة فتحت، بدأت أرى فارق الاشياء والاحاسيس والمعايير الكبير بيننا. طبعا شعرت ببعض الإهانة لرجولتي. وبعد ان اكتشفت زجاجة حبوب منع الحبل في درج المنضدة التي الى جوار جانبها من السرير ساد علاقتنا شيء من الصمت الصعب وأنا أحاول ان أنسى ما سمعت وما رأيت.

انتابني أرتباك شديد وفقدت جزءً كبيرا من ثقتي السابقة. فجأة كنت متعبا لأسباب كثيرة كان أحداها فقط قرارها العجيب بالكفاية بولدين وكل ما أوقع ذاك بي من هزات نفسية. في تلك اللحظة مات داخلي ذاك الحبيب العاشق الواله، ولكن حبي لها لم يمت ابداً.

كم ساءلت نفسي، "هل سأستطيع تغير عاداتي معها؟"

حاولت ان لا أتوقف عند تلك التفاصيل التي كانت تستفزني في تصرفاتها، كما حاولت ان أضع حد لموجة الحزن التي فأجتني بها خشية ان يجرفني التيار نحو واقع لم أكن بعد مهيأ له. كنت أنت وحسن سبب للفرح لا للحزن. في ذلك الوقت كنت أنت طفلا تحبو بين قدمي فأسارع الى رفعك وضمك الى صدري. أما حسن فقد كان على أول مشيه وقد أكتشف صوته على غفلة من أبويه. كان يصرخ بأعلى صوته فيملئ الدار صياحا وهو يدور حول نفسه وكأنه فرخ عصفور يتعلم فرد جناحيه.

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

بعد انتهاء الدوام، وقد صارت أمك تروح وتجئ من المدرسة في تكسي، كان قلبي يركض بي ويسبقني الى الحضانة متلهفا اليكما ولسماع أخر أخباركما من المعلمة لأسرق من أبي الهول تلك الساعات النادرة لأدللكما وألعب معكما. كنت أجهل وقتها أنكما كنتما تهباني شيئا ثمين ليكون الماضي، أفراحا وأحزانا أستعيدها كلما أسودّت الدنيا في عينيي.

مع مرور الزمن، تعودنا، أنا وأمك، ألا نزعج بعضا بالأسئلة ولا بالتساؤلات. كان وقتها ممتلئ بواجبات وضيفتها وبأمور البيت وتربية الاطفال وبوضع المرأة العربية في المجتمع وأخر أخبار الحرب الشرسة الدائرة في جنوب لبنان والتي ليلا كنا نرى لون انفجارات مدافعها البرتقالية تخترق الظلام ثم نسمع دوي القنابل يزنّ في الظلمة فنترحم على من وقع ضحية ظـُلمها.

أما أنا فكنت في فراغ قاتم وروتينية مملة من المدرسة الى البيت ثم المقهى حيث كنت أمضي المساء مع زمرة من اصدقائي وتدريجيا ظهرت الشيشة والتنباك المعسل بالحشيشة في حياتي. غدوت أبنا لهذا الوطن وغريبا عنه في نفس الوقت، حرا ومقيدا في الوقت نفسه، سعيدا وتعيسا معا.

بدأت أعترف لنفسي بأنني لم أكن كفاية لزوجتي عن الدنيا فلم أستطع كسر الشرنقة القاسية التي كانت حول روحها. والحقيقة المفجعة هي أن زواجنا لم يفجر في أعماق نائلة ينبوع الرضا وبقي ذاك والقناعة مجهولين غائبين عنها. في الواقع لم يكن أباك يحلم ان يكون عبقريا. كان حلمي أن تكون لي زوجة وأولاد وحياة عادية.

مع مرور السنون أتسع الفارق النفسي بين شخصيتينا كما أستبد الضجر بنائلة من مجرد الحياة الزوجية وصرت أحيانا أعتقد أنها تشتاق لي غائبا. صار لها نشاطا سياسيا وصارت تذهب - دون علمي في البداية - الى لقاءات وندوات تعقد بجامعة اليرموك وتجتمع بنسوة يتحدثن بأسهاب عن وضع المرأة العربية وعن الاثقال الاجتماعية التي تبقي المرأة زوجة وأم ساكنة في نفس مكان جدتها، كوتد الخيمة مغروزة بالتراب. بدأت أمك تختفي من حياتي تدريجيا ومرت فترة في البداية لم أفهم سبب تغيرها وإذا سألتها تكلمت باقتضاب عن عملها ثم بعد فاصل صمت قصير تضيف وهي تنفث دخان سيجارتها على مهل وكأنها تريد أن تخفي وجهها عني خلف غيمة الدخان الأزرق وهي تبوح لي بسرّها، "علي، أنا لا أريد أن أكون مجرد امرأة أو أذا شئت لا أريد أن أكون مجرد زوجة همّها المطبخ ومسح البلاط. أنني أخاف السعادة الزوجية أذا أصبحت أقامه جبرية."

مرة واحدة أذكر انها رفعت وجهها نحو وجهي وأتهمت نفسها بالجحود في حقي كزوج وطلبت مني الصفح فتلقيتها بين ذراعي لا ألومها ولا أؤنبها، اردد في أذنها، "الا تعلمين يا عزيزتي، انت انسانة حرة تذهبين وتعودين كما ترومين."

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

كانت قريبة مني ومن وجداني جدا في ذلك اليوم كما لم يحدث من قبل او من بعد. رأيت في ملامحها أمر يفصح لي عن عواطفها الدفينة، عن أعماقها المجهولة. وعلى الرغم من كل تلك الثورة التي جندتها نائلة دفاعا عن حقها كامرأة لتعلم وتغير الرأي العام وتتحدى المفكرون الذوون يعيدون التكرار حتى الإملال آرائهم التقليدية المتوارثة. لذلك في أعماقي لم أفهم السبب والتعب المرافق لطموحها. أترى عطرها الذي أخترق حواسي قد شلّ تفكيري ومنعني من ألتعمق بالبحث في حقيقتها؟ وفي حينها كانت الحرية تبدو لي كمرض قد شُفيت أنا منه يوم تزوجت نائلة.

لكن وجب أن أذكر إنه في تلك الفترة، رغم هذا التغير الغريب في علاقتنا، او ربما بسببه، كان بيننا تواطؤا جنسيا في غرفة النوم يشيع فيننا كل ليلة تلك البهجة الجسدية الثنائية، تلك السعادة الغريزية التي كنا نمارسها بشرعية الجنون دون كلام او قيود. فعلى السرير كانت أمك تحترف العشق واللهب والتساوي في جسدها وجسدي فزادت حدة التحامنا وكأنما القطيعة قد قربتنا أكثر وأكثر جنسيا بعد ابتعاد حياتها عن حياتي.

من أين اتت نائلة بكل تلك الأمواج النارية المحرقة؟ كيف تحولت شفتاها الى حميم جرف كل شيء في طريقه واحرق أخر ما تمسكت به من حياء الى حد الهلاك؟ كل الأمثلة تحذرنا من الماء الساكن الذي يخدع هدؤه فنعبره وإذا به غميق يبتلعنا. ولكن كل التحذيرات لا تمنعنا من ارتكاب المزيد من الحماقات فلا منطق للعشق خارج الجنون وكلما زدنا عشقا كبرت حماقاتنا.

أنا الذي كنت حسب قانون الحماقات الشاهد والشهيد بشيء شبيه بشهوى اللهب فبقيت عبدا منبهرا أمامها أستسلم لحبها دون جدل أحاول ان أتذكر في ذهول كل ما كنت أعرفه عن الغرام حتى أحترق كل شيء من حولي على غفلة. كنّت أكتشف بصمت أننّا نتكامل في فورة دم صوفية غامضة. بطريقة مخيفة بقي حاضرنا لا ذاكرة له فارغا كإسفنجة وبقي كل شيء من حولي عميقا ومثقلا كالبحر لا أفهم تقلب أمواجه. في تلك الفترة انتقلنا من العاطفة الى الشهوة وكان لقاء جسدينا زلزاليا كلقاء الجبال كما كان حبنا عنيفا يشبع نهمي ونهمها مرضا لذكورتي ولأنوثتها. نادرٌ جدا ان فاتت ليلة ولم يلتهب سريرنا بحرائق غرامنا ولم يلتق جسدينا بعنفوان الحب وعنفوان الغضب الى حد التلاصق.

وفي البدء تأقلمت بصعوبة مع هذا التطور الطارئ ورحت اتأمل الحياة من باب الدهشة أحاول ان أضع شيئا من الترتيب في افكاري. كل تلك الاشياء التي نشأت عليها وكل المصادفات والقناعات الثابتة والأحلام التي كانت في امرأة واحدة، وكانت تلك المرأة أمك، تبددت وتغيرت. بالنسبة لي كان هذا النمط اللاعاطفي من العشق، الذي لا مكان فيه للغيرة ولا الامتلاك، رحلة جبلية شاهقة صعبة وشاقة جدا.

تدريجيا بدأت أجد الكثير من الحسنات في تطور حياتنا الزوجية. عاد لي مرض الحرية والعزوبية وعدم الالتزام بشيء تجاهها او تجاه البيت او تجاهك وتجاه أخاك حسن. ترفعت نائلة باضطراد في الوظيفة وانتقلت الى المدرسة اربد الثانوية لتدرس اللغة العربية لبنات التوجيهي وصارت تشتري كل حاجات الدار وملازم أبنيها في طريق عودتها من المدرسة الي البيت من محلات شارع ايدون. عدى عن فواتير الكهرباء والهاتف والماء ما كنت أكسبه من راتب صار مصروف جيبي الخاص. صرت أتلهى ببعض المشاغل التافه، لقاءات وتفاصيل يوميه كثيرة مع أصحابي لا أهمية لها فالملل والضياع من مواصفات مدينة أربد. ولكن جرحي كان خفيّا وعميقا.

وفي العام السابع لزواجنا جاءتني أمك في المساء لتعلن أنها أصبحت إحدى نائبات المديرة. بينما كانت نائلة تملأ رئتيها بالحياة، بقيت أنا على عهدي. كان لي حينها في سلك التدريس عشرة سنوات، مجرد معلم أعدادي أمضي فراغي في الشغل بغرفة المعلمين الفوضوية والتي لا يكف المدرسون عن الدخول اليها والخروج منها طيلة فترة الدوام. مثلهم كنت أمضي حصص الفراغ أرشف القهوة المحوجة بالهيل والتي كان كل أستاذ يصنعها بنفسه على جهاز الغاز القذر بأربعة عيون. على طاولات الوسط المغبرة والمبعثرة في ارجاء الغرفة الفسيحة، كانت كتب التدريس والأوراق ودفاتر التلاميذ منثورة بلا اكتراث حيث تركها الأساتذة. كانت غرفة المعلمين دائما مليئة بالضجة والدخان ورائحة البن وتراكم أعقاب السجائر في المكتات المنتشرة هنا وهناك حيثما تُركت.

كان بعض المعلمون أصدقاء بشلل وأحزاب يتناقشون بالأخبار وأخر التطورات على الساحة الفلسطينية والعراقية فقد كانت أزمة الكويت في بدايتها آنذاك تثير الكثير من النقاش الحاد والتطرف بالرأي. شلة منا أمضت الوقت بالتهامس وتبادل أخر القيل والقال ونسرد ما جرى لنا في غرف الصفوف مع تلاميذنا المراهقون. لكن الحقيقة أغلبية المدرسون كانوا جادون ولهم طموحات يصححون بإمعان أوراق امتحان ما أو يقرأون الصحف اليومية والمجلات وهم يصغون لغناء المذياع المعلق على رف بالجدار.

فبينما كان تقدم أمك في عملها مضطردا، كانت علاقتي بالتدريس وبها في تراجع مستمر. والأهم من ذلك كانت نائلة مستقلة عني استقلالا اقتصاديا كاملا بالحقيقة أذى رجولتي. فاذا ابتسمت لم أعد أدرك الصدق فيها من التخايل. وبالرغم من أنها قد استوردت خادمة من سيرلانكا، لم تسألني حتى المساعدة بمصروف البيت او بمصروفها او حتى جزأ من قسوط المدرسة لك او لأخيك وكنتما في مدرسة خاصة.

هل اصبحت فجأة أغار من نائلة ومن ثباتها ومن نجاحها في العمل؟ هل بقيت عاجزا عن التحرر أم كنت رجل عربي لم تنافس رجولته انثى من قبل بهذا الشكل الجريء؟ في تلك الأيام

كنت قلقا ومبعثر الأحاسيس التي استدرجتني الى ذلك الاستنباط. كنت في أزمة نفسية أعاني من اليأس وأردت مخرجا بعد أن وصل زواجنا الى نهاية مسدودة.

لم يعد أحدنا يلقي نفسه فوق صدر الاخر كالغريق. صار صوتي فجأة يأخذ نبرة جديدة فيها الكثير من المرارة والخيبة التي تراكمت مع السنين. كنت أنظر اليها بشيء من الدهشة وربما الأعجاب الصامت. هل فعلا غيّر النجاح في العمل ملامح زوجتي وضحكتها الطويلة أم هل غيرت الذاكرة مذاق شفتيها وسمرتها الجميلة؟ هل صارت تقف أمامي وقد لبست وجه اخر لم أعد أعرفه كأي أمرأه تصادفني في الطريق؟ أترى كانت تلبس قناعا من صنع كبريائي وذاكرة ذكورتي المجروحة ليروج نجاحها ويكشف عن فشلي؟

كان نجاحها وتقدمها يخنقني كل يوم من جديد دون أن يترك بصماته على عنقي. بعد ذلك بدأت أنحدر في منحدرات الخيبات النفسية والعاطفية في آن واحد وأنا أعيش ذاك القلق الغامض الذي كان كالرمال المتحركة يجرفني الى أعماق بالوعته. يوميا كنت أقوم لا أراديا أجرد خيباتي وأفراحي كلما خلوت بنفسي. كان في شعوري حاد أن لابد ان أضع شيئا جديدا من الترتيب داخلي وأن أتخلص من الاثاث القديم ففي أعماقي. كان هناك حاجة ملحة الى نفض حياتي كأي بيت عتيق نسكنه. كان لا يمكن ان أبقي نوافذي مغلقه الى الأبد.

قل شيء من عزة النفس، قل بقايا شهامة رجولية ثارت في داخلي او قل سوء حظ أم حسن حظ. في شهر تشرين الأول من عامي الثالث عشر بالتدريس، خلال فرصة المدرسة الصباحية وأنا جالس في غرفة المعلمين الفوضوية أرتشف فنجان قهوة لاحظت أعلانا في أحد الجرائد اليومية يطلب موظفين ممن يتقنون اللغة الانكليزية من إحدى الشركات الخليجية.

بدون تراجع أو تفكير عميق بالعواقب في اليوم التالي أخذت أجازه مرضية وذهبت الى عمّان حيث ملئت طلب وضيفة في فرع الشركة بجبل الحُسين. لم يكن سفري المفاجئ محاولة مني للأبداع ولا لدخول التاريخ، كان فقط محاولة مني للحياة والخروج من حالة اليأس التي أصبحت شبه دائمة. لم يغب الشهر وإذا بي أُطلب للمقابلة ومنحت عملا في الحاسوب في دبّي قبلته في الحال. كانت ثورة الالكترونيات حين ذاك قد بدأت تنشط وتدخل كل مجالات العمل. مباشرة أخذت الى عمل الحاسوب بفطرة طبيعية. تقدمت باضطراد في وظيفتي الجديدة وكأنني لا أبذل جهد يُذكر وفي الحقيقة كنت أستلذ العمل فأفلحت به. عام بعد عام أزداد ادخاري بالبنك حتى جمّعت ثروة صغيرة لم يشاركني بها أحد وهانا الآن أدعو الله أن تكون أنت وارثها الوحيد.

في أول سنة من تعييني بدبّي صعُب عليّ الفراق ووحشتني أنت وحسن وأهلي بشدة فعُدت الى الأردن عدة مرّات. قضيت كل عطلة الصيف في أربد وكنت أنت وحسن حينذاك طفلان همّكما اللعب وركوب الدراجة ولعب كرة القدم. كان الجو في بيتنا خلال زياراتي

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

القصيرة او الطويلة مشحونة بشحنة غامضة من الكآبة. ومع مرور الأشهر وتأقلمي في مكان عملي الجديد أخذ يتقلص بي الحنين لبيتنا ولأمك بالذات.

شعرت فجأة، وأنا تدريجيا أنفصل عنكم، أنني تنازلت لنائلة عن شيء كان ملتصقا بصدري هو ذات الشيء السعيد الذي في البداية لمّ شمّل العائلة. مات حنيني لزوجتي. وجدت عزائي آنذاك في فرحتي بك وبأخيك. وحدكما، أنت وحسن، ما كان يبعث الأمل في نفسي ويطير بي الى أربد. احتضانكما بذلك العنفوان والصدق كان مكافأة للذاكرة التي كانت توقظ الأب الذي في داخلي لبضعة ساعات ومن بعدها كانت تهجم علينا وعلى البيت تلك الكآبة الصامتة المعتادة.

في ذلك الوقت العجيب نسيت أن أطلب ذاكرتكما مسبقا وأعوامكما القادمة مسبقا، ان احجز عمريكما وأوقف تعداد السنين الذي يركض بلا اكتراث بالبشر. نسيت ان أبقيكما هكذا طفلان على حُجري الى الابد تلعبان وتعبثان بأشيائي.

في كل زيارة صارت قدماي تقوداني بخطي مثقلة الى باب الدار بعدما كانتا تحملاني اليه على أجنح الشوق الجارف. غدت أربد قريبة مني كالدمعة، موجعة كالحسرة. فاذا انفردت بها كنت أرفع وجهي نحو شمسها الماسية وعيناي مغمضتان. أجلس هكذا في حديقة بيتنا لأترك الاشعة الدافئة تسري فوق جفوني وأنا أتنشق الهواء الطري المحمل بعطر الياسمين والفل الأبيض ليملئ صدري ويصبح ذكرى دارنا وأنا أقيم تحت شمس دبّـي التي يبدو أنها دائما ثابتة في قلب السماء كالحريق الكبير الذي لا ينفض ابدا.

صارت هذه الفكرة، والتي كنت في البداية ألجمها، تدور في خاطري بعد كل زيارة، "ماذا لو لم أركما في العطلة القادمة؟ ماذا لو كانت زياراتي لكم مجرد مجاملة لا أحد منا يأخذها مأخذ الجد؟"

لم أعد أسير للواجب وفي كل زيارة صار يجتاحني أحساس جارف بالحزن ومن حولي جدران البيت تضيق وتصبح سجنا. قل شيئا ما أسمه العفة والخجل في داخلي مات فوقعت تحت أغراء الزملاء وكانوا مثلي عُزاب غربة. كان خيط الحرير الذي ربطنا بالأهل أنقطع او على الأقل أرتخى. في إحدى عُطل سنتي الثالثة بعيدا عنكم رافقت زملائي الى عاصمة بلاد تايلاند بعد ما سمعت الكثير عنها منهم.

اكتشفت أن كل شيئا قالوه عن مدينة بانكوك كان صحيح وأكثر. أيمكن أن نلغي الحب هكذا خلال رحلة قصيرة؟ وكيف لم أشعر بعدها بأي أحساس بالندم؟ أي خيانة تجاه ذكرى الحب أنا الأول الذي أقترفها ضدّ زوجتي بالمفهوم الشرعي والأخلاقي للزنا؟ أي ريح حملتني الى تلك الديار الغريبة الطقوس لكي تطعمني التفاحة كاملة فبانكوك لا تحترف أنصاف الملذات؟ كم من النسوة تناولت رجولتي الثملة في حانات تلك المدينة الصاخبة؟ كم امرأة

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

احتضنت يداي دون دفء في فنادق تلك المدينة التي تقدس الجماع بين أي جسدين لم يُكتب بينهما عقد ولم يُدفع مهر؟

وفيما بعد في مدن أخرى في بلدان الغرب والشرق كم من الأيدي الناعمة تتالت على جسدي وتركت أظافرها على عنقي؟ وفي كم من مدينه ضاجعت نساء متناقضات، مختلفات في أعمارهن وفي ملامحهن، في عطرهن وفي جمالهن، في خجلهن وفي جرأتهن؟

الآن فقط وبعد فوات الآوان، بعدما أضناني المرض وابتلعتني الألآم ثم قذفتني، أكتشف، وأنا في دهشة دائمة، أن كل النساء كن شبيهات بأمك. الآن فقط وأنا أستعيد ذكرياتي، أشهد التغير المفاجئ لكل امرأة وهي تأخذ في ذاكرتي يوما بعد يوم ملامح سمرة أمك وتتعطر برائحتها. كل النساء صرن يلبسن ثيابا في لون هندم أمك وهن يجلسن أمامي تماما كما كانت هي تفعل. أكاد ألمح أثار الحنّاء الذي كان في خصل شعرها الحالك في شعورهن.

عندما عدت اليكم في أجازتي التالية بعد زياتي الأولى لبانكوك، أتيتكم محملا بالهدايا الثمينة وكنت أشعر بذنب كبير ورحت أقبلكما وسط دموعي وفرحتي ووخز وألم ضميري وكل تناقضاتي. وكم كنت قد حلمت بلحظة بسيطة كهذه أحتضنكما بدل العالم وكل ما فيه وقد كبرتما في غفلة عني! ولكن نسيت يومها ان اقبلكما عن كل يوم لم أركما فيه ونيابة عن الرجل الذي سأتحول اليه، نسيت أن أوقف عداد السنين الذي يدور ولا يتعب. وبعد دقائق من وصولي وحديثي عن عجائب بانكوك كانت نائلة تتأمل ساعتها في محاولة منها لأبدأ عدم الاكتراث بما كنت أقول وأظهار غيرتها وجرح كبريائها.

صار ذاك الصمت تصرفها المفضل في كل زياراتي لكم. طبعا حزرت نائلة سبب ذهابي الى تايلاند وما الذي أخذني الى هناك. ولكن زوجتي لم تعاتبني أو تستجوبني أمامكما عن دواعي سفري الى تلك المدينة التي تتاجر بالجنس وقد ألمني ذلك. لم تسألني أيّ سؤال توضيحي ولا عقبت ولو بكلمة واحدة تتهمني بالخيانة في حضوركما وأنا أصف لها عجائب بانكوك. فقط أنت وحسن استمعتما لي بذهول وفضول طفولي وأنا أحدثكما عن أثار تلك البلاد وتاريخها بينما كانت غيوم المكابرة تحجب نظري عن أمك.

نظرت اليها من خلف ضباب الدموع وكم كنت أود لحظتها لو تصرخ في وجهي "كذاب. أنني أعلم علم اليقين سبب سفرك."

بقيت هي هادئة جالسة في مكانها وأنا جالس في مكاني بينما كنت أنت وأخوك تصيحان بغبطة مشغولان باللعب التي أتيت بها لكما وكان على وجهيكما فرحا وسرور وأنتما تمزقان أوراق الغلافة وتنزعان الألعاب من صناديقها بفضول وعلى عجل. في تلك الزيارة كان كل شيء في أمك يستفزني لعدم اكتراثها الظاهر وقولها ما يجب قوله. ابتسامتها قصدا كانت

تتجاهل ندمي وخجلي الواضح على ما فعلت. نظراتها التي كانت تعاملني وكأن شيء لم يحدث، وكأنني لا أعرف ما يدور في رأسها.

في ذلك الوقت الحرج بدت لي نائلة انسانة توقفت أمامها ذات يوم لسبب أو أخر لا أكثر ثم واصل كل واحد منا طريقه المنفصل. فجأة نهضت أمك واقفة تشد عضلات جسمها الممشوق ورأسها مرفوع تهزه بقوة واثقة كأنما هي قد نفضت عن نفسها لحظة ضعف. خرجت من الباب تدق الارض بكعب حذائها دون ان تستدير. وبعد خروجكما الى الحارة عادت نائلة وجلست أمامي وأخبرتني بمنتهى الواقعية أن علاقتنا قد تغيرت منذ سافرت أول مرّة وتركتها وتركت لها الولدين لتكون هي لهما أبا وأما.

قالت، "أنني لا أشك أنك منذ سافرت لن تستطيع الصمود وان جسد أول امرأة ستستأجره بالدقيقة لن يكون الا بداية لأجساد نسوة أخرى تدخلها بالأجرة."

قلت، وتأنيب الضمير في تلك اللحظة كان يفتت أحشائي من الداخل، "أنت خاطئة يا عزيزتي. أنت لم تفهميني أبدا. أنا كنت معك أعيش على هامش الحقيقة. لا أعتقد أن الوصال بيننا كان روحيا، أن لمعت خاطرة في عيني أحدنا لم تلح نفس الخاطرة في دماغ الأخر. نعم يا عزيزتي لقد كنت يوما حبيبتي وفاتنتي. كنت كل أحلامي ولم احترف معك الكذب الأبيض ولا الكذب المهذب. كنت أعيش معك بصدق."

ولكنها أصرت على رأيها. ثم بعد شيء من التفكير قالت متكابرة، "أن كل الرجال تكذب بصدق مدهش."

كنتُ فجأة على عجل. أردت أن أجلس أمامها بعد كل تلك السنوات لأفرغ كل الضجيج الذي كان يدوي في رأسي. فقلت بعتاب، "أنا لست كذاب ولا أقول الا الأشياء الصحيحة. نحن لم نفرح ونحزن معا وأنت المرأة التي أردت أن أضحك معها وأبكي معها. لكنك أنسانة غير عادية وبفرح وحزن غير عاديين. مقاييسك للسعادة والتعاسة ليست كمقاييس الناس. أنك أنسانة مفاجئة متقلبة الأطوار متعددة الألوان لم أفهمك ولم أجد مبررا لسلوك. لم تسمحي لنا أن نصبح نسخة من بعضنا. ويوما كان أجزل الكذب ألما كذبك. منذ تزوجنا لم أنقب في أقوالك فأنت لم تبوحي لي بشيء عما كان يخامرك. أنك امرأة احترفت المراوغة أو ربما أنك لم تقولي ليّ ما كان يشغلك لأنك فكرتي أنه ليس هناك من شيء يستحق الاعتراف به، او ربما اعتقدتني لن أفهمك. فلماذا أذن كنتي تريدين أن توهميني أنك فارغة من المشاكل؟ ما كان سرّ تعلقك بي؟ كنت تستدرجيني للحديث وتلاحقيني بالأسئلة. فلم كانت كل تلك الشراهة لغور أعماقي ومعرفة كل ما كرهت وما رغبت من أشياء بينما أبقيت ما يحزنك ويفرحك في بئر عميق؟ في غياب حسن ونادر كان بيتنا يسكنه الصمت. زواجنا منذ البداية كان فقط لتطبيق مشاريع أحلامك. بالنسبة لك، كان زواجك واجبا فرضه المجتمع عليك. كان زواجنا فاتحة طريق لتصلك الى طموحاتك."

ربما في ذلك النهار قضيت مع أمك أطول زمنا نتحدث بالأشياء المهمة. قلنا الكثير وسط عواطف متكابرة وعندما انتهينا كنت أنا مثقلا بالهزات النفسية، مشحون بالانفعالات المتطّرفة. ما تبقى من تلك الزيارة امضيتها مع أمك بصمت مخيف. الحقيقة يا ولدي، لم يكن أبوك وليا. لقد كنت مجرد رجل أحب امرأة بتطرف وحماقة. لقد خلقتها هكذا من وهم خيالي ثم جلست قبالتها لأحبها.

لكن حبيبتي لم تكن عادية مثل النساء بأطوار عادية وبأحزان وأفراح عادية ولا حتى بمقاييس عادية. حبيبتي كانت أنسانة طموحه متقلبة المزاج مفاجئة لم أفهمها ولم أجد مبررا لسلوكها. عبثا حاولت أن أقناعها أن تكتفي بالموجود ولم أفهم أصرارها على تحقيق طموحاتها التي لم تشاركني بها بأكثر مما كانت تردده، "أريد أن أكون فعّالة أتأثر وأثر بما حولي."

كانت نائلة عنيدة تقول بمنطق الذين بلا دموع وهي تنفث دخان سيجارتها على مهل، "أريد أن أكون أداة تغيّر. أنني أخاف الخمول وأن تصبح حياتي أقامه جبرية بالماضي. أريد ان أكسر أبواب السجن التي وضعني المجتمع خلفها."

كانت أمك ممتلئة بالكلمات غير المحايدة. فبينما كنت أنا مليئا بالقيم والمثل كان في أمك رغبة لتغير العقلية العربية التي لم تغيّر الهزات الدامية القوية التي مرّت بها أمتنا ولاتزال تمرّ شيئا كما كانت تزعم. لكن في غرفة النوم كان بيننا صمت ثقيلا متواطئ. في الظلمة كان وجودي الى جوارها بالسرير يوقظ أنوثتها كما كان عطرها يستفز رجولتي ويستدركني الى جنون الغرام. وهج لهيب عيناها جردني من سلاحي وأثار ذكورتي. كانت أمك نصري وهزيمتي. وليلة بعد ليلة، تناست زوجتي خيانتي لها ومارست الحب معي بعطش وجنون. كانت جدا جائعة لجسدي حتى أنه دار في خلدي فيما أذا كنتُ مجرد أداة لأشباع شبقها.

وبعد عودتي الى دبّي كان هاتفي اليكما يحدث مرة كل أسبوع ثم كل أسبوعين وكنت أتمسك بالاتصال بكما واستنجد بصوتيكما ليبخرا جانب من العزلة التي كنت أعيشها. ولكن مكالماتنا الهاتفية قلت الى مكالمة مقتضبة بين حين وأخر على الهاتف الخلوي. الاجازة التالية والتي بعدها أمضيتها وحدي في بانكوك. في تلك العاصمة الجميلة كنت أمضي النهار سائحا أتفرج على المعالم الأثرية او أراقب العوامات فوق مياه نهر شاوفرايا تتثاءب باسترخاء تحت ظلال الأشجار الوارفة على ضفتيه. أما سطح القنوات المتفرعة من النهر فقد كانت مكتظة بالأسواق العائمة في قوارب صغيرة مزركشة بالألوان والأعلام. تحت الضفة المظللة بأشجار النخيل الشامخة كانت الزوارق الطويلة جاهز لنزهات السياح يحرصها صبية من ريف تايلاند عظامهم بارزة من تحت بشرتهم الصفراء الداكنة وعيونهم اللوزية واسعة ومملؤة بالحزن.

أمام الفنادق كان ينتصب على مداخلها الحراس بزيهم اللامع وعيونهم الشاحبة يحيون السياح بأدب شديد. تعرفت على بواب الفندق الذي كنت دائما أُقيم فيه وكنت أتبادل معه بعض الكلمات كلما خرجت أو رجعت. كان رجل بسيطا ومؤدبا وجهه النحيف وعيناه اللوزيتان

سوداوان مليئتان بالحنان وبشرته السمراء الداكنة بلون طمي النهر واسنانه البيضاء تلمع في الشمس.

لكن الزمن لم يتوقف. كان يتربص بي ويتآمر ضدي وأنا جوال أطوف حانات وفنادق الشرق بحثا عن متعة الجنس في مدن تمارس التعري وبالصمت تفضح الأسرار حتى عندما لا تقول شيئا لا تبقى شيئا لم يقال.

6

في شتاء سنة 1996 وكنت في سنتي السادسة في دبّـي، وقد تعودت ان أعود الى أربد مرة أو مرتين في السنة وبقية العُطل أختلق الأعذار لعدم تمكني من زيارتكم أكثر من ذلك، جاءتني فجأة وعلى غير العادة رسالة خطية مطّولة من أمك تطلب مني العودة حالا وانها والأولاد ينتظرونني بشوق كبير. كان حسن حينها في السادسة عشر من عمره وأنت في الخامسة عشر. توقعت أمر سيئا قد حدث لأحدكما. وعندما كلمتها على الهاتف لأتبين ما حدث فوجئت بدعوتها ليّ بالعودة المباشرة ولم أسالها حتى عن السبب. فهمت منها فقط أنها لم تعد تستطيع أن تحل أمر الولدين بنفسها وأصرت على حضوري الفوري. أعترف أنني كنت سعيدا ومرتبكا في آن واحد لأنها طلبت مساعدتي وخجلت من نفسي لأنني لم أقدم لها المساعدة اللازمة في تربيتكما فعدت وأنا لا أعلم ما سأجد.

قالت لي نائلة مجرد دخولي البيت، "علي، أرجوك أستأجر لنا شقة عندك في دبّـي لألحق بك أنا والأولاد ونجمع شمل عائلتنا."

كان الموقف حزينا ويأسا شيئا ما رغم تلقائيته وطبيعية الطلب. أخذت أمك لأول مرّة مذ بدأت أسفاري تعاتبني وتتحدث عن امومتها وتطالبني أن أظهر ابوتي فهي لا يمكن أن تكون أما وأبا لكما في آن واحد.

قالت، "كَبُر حسن ونادر وهما بحاجة الى أبيهما أن يكون معهما وليس مجرد زائر يشاهداه مرّة او مرّتين بالسنة."

كان يمكن أن أجيبها بكلمة واحدة هي "لا" أختصر فيها كل تناقضات موقفي وكل ما شعرت به تجاهها من عواطف متطرفة، ولكنني أُخذت على غرّة ولم أقل شيئا في البداية. الحقيقة المحزنة هي أن فكرة اصطحابكم لم تعد تخطر لي منذ كانت تراودني في بداية عملي في دبّـي. كنت آنذاك مليئا بالخواطر الحسنة تجاه أمك. لقد أزعجني طلبها المفاجئ جدا فقد صرتُ أستلذ حياة الوحدة. هكذا أتيكم ضيفا عندما يحلو ليّ مثقل بالهدايا ثم أغادركم لا أحمل غير عبء نفسي. لقد تعلمت فنّ النسيان وصرت أطبقه على من أحب.

ربما حكم العمر أو طول البعد علمني أشياء كثيرة منها كره أنصاف الحلول في كل شيء وخصوصا أنصاف الحلول في الملذات. غدوت رجل الاختيارات الحاسمة، فأما أن أحب وأتخلى عن كل شيء لأبقى مع من أحب وأما أن أرحل لئن الذي كان ينتظرني في دبّـي أهم وليس هناك من مبرر لتعذيب نفسي بالأشواق والذكريات. ورغم ذلك الجبروت تسألت طويلا ما أذا قد أخترت الحل الصحيح!

الواقع في حينها لم أفهم أن كانت أمك جادة في الاقتراح باصطحابي اما أن طلبها كان مجرد تعجيز منها لتنغص علي حياة العزوبية. كنت يوما ما رجل لا يتقن المراوغة وها انا الآن سيدها. صرت أختلق الأعذار الواهية وأنا في الحقيقة أغير على حريتي من مسؤولية رب البيت والارتباط الذي حتما سيفسد عليّ صحو حياتي الهادئة وكل ما جربته ووجدته ممتعا في عيشتي المستقلة. لأول مرة في حياتي لم يشاركني أحدٌ غرفة نومي ولم أعد أستطيع الالتزام بقيود الحب او الزوجية. لا أحد كان يسألني الي أين أذهب؟ مع من أسهر؟ ماذا أشرب وماذا أكل؟ عدم الالتزام الدائم هذا بدأ يقتل حبي العائلي. فكرة وجود شخص اخر تحت لحافي، وجود امرأة تحت جلدي، أسمع انفاسها طوال الليل صار حقا يزعجني بقدر ما كان يزعجني انقطاعه في البداية. دار بيننا شجار حاد وأمضيت في أربد ثلاثة أيام من الخناق المتواصل. وطبعا أنحزت أنت وحسن الى أمكما. في الختام قطعت أجازتي وعدّت الى مقر عملي. كانت تلك أصعب زيارة قمّت بها لكم على الأطلاق قضيتها أنام سواد الليل على الأريكة.

الآن، بعد كل تلك السنون بدأت أعيي أسباب نائلة لطلب العودة مني الى أربد أو رحيلها هي وأنت وحسن معي الي دبّـي. كان ذلك في الواقع تضحية كبيرة من طرفها أن تترك وضيفتها والشائعات حينها كانت تردد أنها على وشك أن تصبح أول امرأة تعين مديرة لدائرة تربية وتعليم محافظه أربد وما بعد ذلك غير الوزارة. هل كانت أمك فعلا مستعدة أن تستقيل من عملها لمصلحتك ومصلحة حسن؟ ربما! فقد دخلت أنت وأخيك آنذاك سنّ المراهقة ولابد أن تصرفكما كمراهقين قد أعيها ورأت أن وجود الأ ب بالبيت ضرورة قصوى ليكون لكما قدوة ومثالا يحدد تكوينكما الخلقي والعاطفي كذكرين.

عبثا حاولت أن أقنعها بالعدول والبقاء في أربد. لم أكن حينها أفهم سبب حماقتها تلك وإصرارها على اصطحابي خصوصا وها هي أخيرا على وشك أن تحقق الترفيع وأهمية ذلك بالنسبة لما كانت هي تقدسه لتقدم وقبول المرأة كعضو فعّال بالمجتمع العربي.

ولما فشلت أعذاري ذكرتها بذلك أجابتني ساخرة، "أي وضائف تلك التي تتحدث عنها، يا رجل؟ أما نذهب معك أو أن تعود أنت الى هنا. لكن المرأة هي التي تضحي دائما وأنا لا أريد أن أخسر أبنائي من أجل الوظيفة. بعدهما ليس ليّ شيء ذو قيمة أفتخر به."

ولكنني تشبثت برأيّ على أن يبقى الأمر كما هو عليه وغادرت والجو بالبيت داكن بسواد حالك. لبضعة أشهر شبه اندثرت أخباركم عني. بقية ذاك العام تجنبت أمركما هذا طبعا عدي

عن مكالمة هاتفية مقتضبة او خبر عابر أتي به زميل عائد من زيارة لأهله. حملني العناد في أجازتي التالية الى إسطنبول والى حاناتها ودور اللغوي المليئة بنسوة أوربيات يحترفن تأجير أجسادهن بالدقيقة لشباب ورجال الأتراك والعرب.

في احدى الأمسيات عدت كالعادة متأخر الى شقتي الشاهقة المطلة على بحر دبّي أذ كنت مع بعض الأصدقاء وطلبنا مشروبا حتى ثملنا، وجدت رسالة صوتية مسجلة على جهاز استقبال الهاتف بانتظاري. حالا طار من رأسي تأثير المشروب وأصابني قلق شديد مجهول السبب وبدأت لا شعوريا أتحدس أسوء الاحتمالات بأن شيئا ما قد حصل لك أو لأخيك حسن لتتصلوا بي في تلك الساعة المتأخرة. بيد مرتعشة ضغطت على زر الاستقبال لأسمع الرسالة فحياني أبي بصوت عاليا وكان سعيدا لا تسعه الفرحة وهو يقول، "علي، أتصل بنا حالا...عندنا لك مفاجأة سارة لا تتوقعها."

وبالرغم من أن الرسالة كانت بصوت فيه الكثير من السرور كانت هواجسي هواجس شؤم وقلق فاتصلت بكم مباشرة. ولدهشتي ردّ أبي على الهاتف ومن ذي البداية أخذ يبارك لي بالمولد الجديد الذي أنجبته أم حسن ذاك اليوم وسمّاه هو محمد على أسمه.

أُختتم جدّك مكالمته بالقول، "الوليد وأمه عادا من مستشفى رحمة للولادة وهما، والحمد لله، بخير وسلامة ويترقبان عودتك على أحر من الجمر."

في البداية كدت أطير من السعادة وبدأت أشعر أن نائلة قد حملت بمحمد وأنجبته لترضيني. أحسست بغضبي عليها ينصهر ويتبّخر. فجأة نسيت شجارنا وخصامنا الذي لابد ودام تسعة أشهر هن شهور حملها. وبالرغم من تأخر الساعة كان الجميع ببيتنا يحتفون بوصول المولود الجميل الجديد. أمضيت أكثر من الساعة على الهاتف فقد تكلمت اولا مع أبي، ثم أمي ثم معكما ومع جميع بقية العائلة وعاتبتهم واحدا أثر واحد لعدم الاتصال بي مسبقا واطلاعي على الخبر السعيد لأحضر الولادة. وأخيرا وقد كلمني الكل وأخبرتهم بأنني ولا شك سأحضر الى أربد حالما أتمكن من نيل إجازة. وأخيرا جاء دور زوجتي على الهاتف.

كان أول شيء قالته لي، "لحظة لو سمحت يا علي حتى أدخل غرفة النوم."

طربت لذلك أفكرها تريد أن تستخلي بي لتـُسمعني كلاما مُعسلا. ولما وصل سلامها أذني كان كشلال فرح وشعرت أنها تشرع نوافذي وتقبلني قبلة صباحية وحالا سألتها وأنا بمنتهى السرور، "لماذا لم تخبريني بأنك كنت حامل؟"

لكن أجابتها كانت بطيئة وباردة وكانت كلماتها متلعثمة. بغتة شعرت بصقيع قارص يسري في جسدي وحالا أنقلب كل شيء الى ترح. بدأت أرتعش من البرودة وأنا أستعيد في

دماغي ما حدث أبان زيارتي الأخيرة لأربد. لم أكن بحاجة للكثير من التفكير فقد كانت الأريكة سريري طوال تلك الزيارة العاصفة التي استمرت ثلاثة أيام من الخناق المتواصل.

في أقل من لمحة بصر بدأت أفهم ما قد حدث وأن زوجتي لابد وخانتني مع رجل أخر. تفجر ذاك اليقين فجأة في جوفي كجبل بركاني ثائر جارفا من حولي كل شيء اسمه فهم او منطق كما جرف كل شيء أخر في طريقه حارقا حتى الرماد بقايا الودّ التي تمّسك به قلبي. شعرت أن صوتي قد أنفصل عن جسدي وأنني عاجز أن أجيب ولو بكلمة واحدة. وربما لثانية شعرت أنها قد استمرت الى المالانهاية أحسست أن شيئا ما يمسمرني الى الكرسي وكأن تعب كل عمري وعذاب كل عمري قد نزلا عليّ فجأة ومنعا ساقيّ من الوقوف وأنا أستعيد كل ما يمكن أن يكون قد حصل.

ويعد صمت طويل من جوف أحشائي الملتهبة صحت بها على الهاتف، "عاهرةٌ! زانية! دمك مباح لي ولأولادي الى يوم القيامة."

طرقت السماعة بالأرض غضبا وارتميت على الأرض غريقا بالنار والقهر والشرف والعرض المباح فتحولت نفسيتي الى دخان أسود كالح بلون نيران البركان الذي ثار في اعماقي المقهورة يقذف الشتائم والوعيد حجارة من سجيل حتى صارت سيولا من نار أحاول وأنا في جوفها أن أستعيد ما سمعته وأعيد تكراره.

7

ولدي أن العربي لا يقول كل ما يعرف ويكاد ان لا يلبس كل ما يملك. البعض يسمي ذلك تواضع واحتشام. لكن لابد لي أن أعثر على الكلمات الأوضح والأكثر بوحا والأقل حرجا امامك فمن حقك ان تعرف كامل الحقيقةً. كان يمكن ان لا تكون حقيقتنا لو لم يشأ القدر أن يضعها عند منعطفات حياتنا وفصولها. وها هي الكلمات التي حرمتك منها كما تريدها عارية موجعة أسطرها ورعشة الخوف أحيانا توقف يدي وتمنع القلم من السير على الصفحة.

أنني على درجة عالية من الانفعال والأحاسيس المتطرفة والمتناقضة التي تكاد أن تشل تفكيري وتجعلني عاجزا عن التميز بين المعاني. أنا تماما اعي بأنني استبدل القلم بسكين وان الكتابة اليك صارت قاتلة. عندما ابحث في حياتي لا أجد فيها اي شيئا خارق سوى أنت. أنت الأنسان الوحيد المتبقي، الأنسان الوحيد الذي له أمرا وسطوا عليّ وها أنا الآن أضع أمامك معضلة تهد الجبال العالية.

لقد مرّ زمن وكنت أجهل ان الأشياء العادية كالحب والأبناء تجرّ خلفها الأشياء غير العادية. أنني أُمن بأنني ضحية أمك وبأنني الجثة التي حنطتها وحكمت عليها بالبقاء الى هذا

اليوم العفن. أنني الآن افتقد المقاومة للكآبة التي لا تفارقني وكأنني مشلول العقل والروح عاجزا عن كل أمر حتى الموت. لكنني في أعماقي لازلت ذات الرجل الذي كانت آماله يوما معلقة بين الاجواء الحالمة، فلم أكن أبغي أن أكون مدير مدرسة أو موظف برتبة عالية. لم أحب الفقر ولا الثراء، كنت أتمنى ان يضمني قلب كبير دافئ وبيت صغير هادئ انام فيه بعمق ومن حولي عائلتي دون ان تزعجني الأحلام والطموحات. ولكن القدر اراد لي أن اكون أبا غائبا وزوجا للغربة. وكم تنهيدة عميقة تخرج من اعماقي وأنا راقد على ظهري أتلقي شعاع شمس اليرموك يدخل من النافذة ليتخلل اعضاء جسدي الهزيل ويفتح المسامات المسدودة منذ كذا سنة.

حتى بعد موتها بقيت في صدري حدة نيران سخطي وقهري وغضبي الأعمى على أمك تزيد التهابا وحرائق كبريائي مشتعلة تبتلع مساحات شاسعة من حياتي. في تلك اللحظة التي استيقنت فيها أنها خانتني، لو كانت أمامي حتما لقتلتها بدون التفكير بالعواقب. في الأيام الأولى طبعا كنت أريد الانتقام منها كأي رجل عربي ذو شرف، عرض وكرامة.

في الحقيقة ذلك هو التفكير الفطري لاي ذكر بشري لا يملك طاقة داخلية لتأني نفسه في ساعة الصدمة. وعندما سمعت الخبر لم أتوقع مطلقا ان محمد سيطاردني هكذا بوجوده الملح الى الأبد ليصبح محور تفكيري وأمره دائرة مغلقة ادور فيها وحدي. لقد أصبحت حقيقة أمر الطفل وأمه عبئا ثقيل عليّ. حقيقة تقتنصني وتتربص بي ليل نهار. أن محمد قنبلة مؤقتة أصرخ وأصيح في وحدتي من ويلها الذي حلّ بي وحلّ له الموت على يدي. كرهت أمك في الليل وفي النهار بكراهة لم أعرفها من قبل.

انقلبت عواطفي مرّة واحدة الى خالجة جديدة فيها المزيج من المرارة، الغيرة، الحقد والاحتقار. أه لكم تمنيت لو تمكنت منها أسناني لأعضها وأقطع لحمها او لو استلمتها أظافري لأمزق جسدها الرخيص قطعة قطعة وأرميها ليلا للكلاب الضالة لتأكلها.

بعد سماعي خبر ولادة محمد، اعتصمت في شقتي الشاهقة لأكثر من أسبوع لا أشاهد أحدا ولا أكلم أحدا. كان كل يوم يمرّ يشهد الدمار النفسي الذي أوصلني اليه خبر ولادة أبن الحرام. أن لم أتخلص منه فسيحمل أسمي الى الابد ما لم أفضح زوجتي وأم ولداي. لقد أوصلتني تلك الحقيقة الى ذاك الحدّ المخيف من اللاعقل وكنت واثق أنني سأحترق حتى الهلاك والاحتراق الأخير في جهنم. وفي الأيام الأولى لعودتي الى عملي أينما ذهبت كنت أحسّ بأنني محاصرا بكل مستحيلات معاير العرب وتقاليدهم، ملاحقا بالأعين التي في اية لحظة قد تغوص في غور أعماق نفسي وتسرق سرّي من لون وجهي أو من كلمة طائرة انفثها في لحظة يأس او غضب.

كنت أشعر وأنا أهبط الي تلك المتاهات العميقة في داخلي، أن دهاليز الكره والحقد والانتقام المعتمة قد قادتني بعيدا الى تلك المسارب الضبابية السوداء اللامتناهية الأطراف

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

والتي لم تطئها قدماي من قبل. وأنا أنزل سلّم القيم بدأت أتنكر، دون ان أدري، لتلك المعاير المقدسة التي رُبيت عليها وآمنت بها بتطرف ورفضت عمرا بأكمله ان أساوم عليها. يوما ما كان جسد أمك مقدسا يمثل لي الشرف والعرض كشيء لا يتجزأ ملتحما بالأرض الى حد أن الفصل او التميز بينهما من المستحيلات.

كرجل عربي لم يكن هناك في قاموسي فرق بين الأخلاق والقيم وتصرف زوجتي أو أختي أو أمي فأنا قاطع رأس أيّ منهن أذا زلت. ربما لو كان لي أبنة لأغير عليها فربما غير وجودها مسيرة حياتي وجعلت متطلبات رعايتها وصون شرفها أهم شيء في حياتي فربما كانت سيرة حياتي تختلف كليا عما جرى ليّ.

مع مرور الأيام بدأت أعي أنني بدأت أتنكر لتلك القيم العربية الثابتة التي أُنشأت عليها. أتراني كنت أخون الزواج وأنا أنفرد بالنسوة في إستانبول او بانكوك والمدن الأخرى في جلسات عاهرة عارية تماما من الشرف؟ أتراني وأنا أضاجع الغواني كنت أخون أعز انسانة بقلبي، رفيقتي وصديقتي، وأدنس ذكراها وكنت قد قطفت بكارتها وسرقت منها زهرة عمرها؟

أيمكن ان أقتلها باسم الشرف والعرض والانتقام وانا الزاني مرات لم أعد أتذكر عددها؟ أن فعلت وقتلت أمك، ماذا سيكون موقفك أنت وحسن مني؟ أية عقد نفسية كنت سأضعكما بها؟ كان هناك أسئلة كثيرة من هذا القبيل تدور في رأسي. غير أن أسئلة من نوع أخر كانت كذلك تحيط بي وتسد الطوق حولي من كل الجهات تتهمني بأنني أنا الجاني.

هل أنا طرف في هفواتها الواقعية أو الوهمية؟ كأب وكزوج أي خيانة وعدم القيام بالواجب قد اقترفت أنا بحقكم جميعا؟ أجل لقد سرقت مني أمك كل شيء أسمه رجولة والقتني جريحا في خضم حرب لا أستطيع كسبها الا بدماري وموتها. جاء أخوك محمد غير الشقيق ليربطني بكم ويفصلني عنكم في الوقت نفسه، كان جسرا وحاجزا في آن واحد.

ما بقيت صامتا على خيانة زوجتي فأن أبنها وأبن ذاك الرجل المجهول سيكون أبني ولم يكن من المنطق أن يكون شيئا أخر غير ذاك بالنسبة له وللعالم. رحت أقاوم ذلك الاستنباط بحواجز داخلية خفية عن الأنظار. كنت أنزلق يوما يعد يوم نحو هاوية الهلاك وأصطدم بحجارة وصخور الخيبة وأقع بالحفر والمطبات التي وضعتها نائلة في طريقي من مستحيلات وعوائق.

لكن لم يكن بوسعي سوى الاستمرار بالسير الصامت رغم الخدوش الدامية التي في قدماي والجروح العميقة التي بين أضلعي. رغم المظاهر الكاذبة كنت رجلا أتعذب في داخلي وأواصل انزلاق روحي نحو الهلاك بسرعة مذهلة. رغم خياناتي الكثيرة والمتكررة، كنت لا أشعر بذنب على الأقل أبان تلك الفترة الأولية التي كنت مكتفيا فيها بالغضب على ما فعلته زوجتي غير المصون. حينها لم أكن أفكر بأكثر من ذلك وكانت تحتويني العواطف الجارفة

التي كانت أحيانا تعتريني بتعاستها المرّة القاسية والمتطرفة. أوقات أخرى كان الحزن الشديد الموجع يمتلكني. في الواقع في البداية أمكانية الغفران لها لم تكن سوى محض أوهام مريرة وألم قاسي ذقت مرارته ليل نهار.

في ذلك الحين كانت لازالت تحتويني غيرة عمياء جنونية من رجل ربما قد مرّ بحياتها مرور أبن السبيل. واقع وجود محمد يُملي أن أباه كان مخلوقا حقيقيا وليس من صُنع خيال نائلة أتت به من فراغ حياتها لتنتقم مني وتعذبني. وبالرغم من أنني كنت بعيدا عن أربد، في دبّـي كنت أشعر أنني محاصر بكل مستحيلات معاير العرب، ملاحق بكل العيون التي قد تكشف سرّي كرجل بلا شرف في أية لحظة. رجل متقاعس عن الواجب لم يأخذ بعد السكين الي قلب زوجته الخائنة الزانية ولم يقتل معها أبنها وليد الحرام. لماذا وحدي تفضحني عاهتي كرجل بلا دم ثائر يغلي في عروقي؟ لماذا كل هذا الحذر من كشف سرّي فالرجال الأخرون لا يرون غير انتصاراتي وهي الآن ثلاثة ذكور؟

ما الذي جعلني أعدل عن فكرة طلاقها؟ كنت أشعر بحرج أمام أصحابي وأنا أستمع لهم يثرثرون حول مشاغلهم ومشاريع سفرهم ولم أعد أستغيث بالرغبة بالحديث عن مدن اللذة تلك التي كنت أطير لأزورها. أينما ذهبت كنت أشعر بذاك الارتباك الذي أحسست انه سيفضحني لا محالة ولذلك صرت أفضل البقاء في شقتي التي في أعالي برج شاهق. وكم من ساعات طوال أمضيتها جالسا بشرفتي المطلة على مياه الخليج العامرة ببواخر النفط بحجم المدن وقوارب الأغنياء البيضاء الراسية بالميناء والدّهوات الجميلة فاردت أشرعتها في عرض البحر والسمك الطيّار يلاحقها فوق سطح الماء. وانا أجلس بين الحرائق أستمع إلى نفس الأشرطة غدت ايامي عجفاء قاحلة واصبحت لياليي سوداء متشابهة أشكي في ظلامها جراح كرامتي وشرفي وعرضي.

ولكن أحيانا كان هناك ومضات من الأنارة الداخلية، كنت أبانها أفحص نفسي وأخطائي. من أين أتي بمقياس للزلازل الأدبية التي كانت تهزني بشدة عنيفة لأعرف بالضبط ما يحدث في أعماقي؟ هل أصبح وجودي جنونا مرضيا لا علاقة له بالأحاسيس التي أبذرها هباء في الغيرة واليأس؟

تدريجيا بدأت أتبين أن الدقة الزائفة في التفكير في خيانة زوجتي أو حتى خياناتي المتكررة لها لن تقود في النهاية إلا الى جعل الحب قاتل ملثم. والأكثر ألما أن بؤرة تركيز حياتي، وهي أنت وحسن، أصبحت كظلمة ضبابية تفسد توجيه اهتمامي بكنه المشكلة وتجعله مختلطا مشوشا. كل ذاك كان نتيجة للغيرة العمياء والبحث عن الانتقام لمطالب لا عقلية لها او علاقة بموضوع أخر هو قدسية المجتمع ومكانتي فيه كرجل من بني قومه.

أخيرا وصلت الى استجابة خاصة متكاملة تراعى بكل دقة تطور علاقتي بأمك وأنها ستبقى علاقة ارتباط وثيق بسببكما. أن لك الحق كل الحق يا ولدي أن تتساءل ماذا يعني هذا

كله؟ هل أختار أبوك الصمت على الفضيحة كي لا يزلزل ركائز بيته الذي لم يعد بيته؟ ليس تماما فحتى الآن لازالت الغيرة أكثر الأحيان تمتلكني وأندم لعدم الانتقام لشرفي. ربما هي الغيرة العمياء التي تدفعني للكتابة اليك! أو ربما هي رغبتي الحقيقية لتسويد صورة أمك أمامك ما يشدني الى القلم!

وأنا أبيت الليلة تلو الليلة حبيس شقتي أمضي الأماسي وحيدا، لم يكن امامي سوى التلفاز ليملئ فراغي. تحول عالمي الى جهاز تلفزيون عتيق مثلي يعرض شريط اخبار لا ينتهي فأخذت القراءة لأملئ بعضا من فراغي. كأنني فجأة عثرت على وجداني الذي كان ضائعا مني طوال هذه السنين فاكتشفت في الآداب العربية، قديمها وحديثها، عالما جديد هو عالم الشعر والقصص. وبدون أيّ أنذار مسبق أصبحت القراءة متعة باطنية جديدة تفوق متع الحياة الملموسة، أسير فيها الى الأمام ولا أنظر الى الخلف وكأنما ولدت من جديد على شاطئ أمان رسي عليه زورقي بعد الضياع فوق أمواج محيط الغضب السوداء المتلاطمة. دخلت القراءة حياتي كنسمة زفير رطبة ومنعشة لحظة الانفراج من بعد طول الاحتباس في جو خانق.

ولما تأخر حضوري الى أربد انهمرت عليّ المكالمات الهاتفية من كل صوب. الكل أتصل، أبي وأمي وأخواتي وأنت وحسن كلكم تستعجلون قدومي الا أمك احتفظت بصمتها. كان هناك سبب لانطوائها غاب عن الكل عدانا نحن الأثنان ولم يجد أحدنا القدرة على مواجهة الأخر بالحقيقة. أمر أخر كان غائبا كليا عني وأنا أطوي الأيام في جحيم شرفتي هو احتمال وقوعها في حبّ رجل أخر.

ربما أن سكوتها كان لذاك السبب، ولكن سرعان ما رفضت كبريائي فرض ذاك الاحتمال الممكن جدا. عجيب لم يُرفع أصبع الاتهام بالخيانة ولو مرّة واحدة الى نائلة بينما أنا لمجرد سفري اتجهت كل أصابع الاتهام نحوي وكان الجميع مقتنع، لا بل متأكد، أننّي ضاجعت أكثر من امرأة، ولكن لم يلمني أحد. أن العفة الجنسية ما يتوقعه المجتمع العربي من الأنثى بينما يحلّ للذكر كل ما ملكت أيمانه.

كفل تسرب الوقت أخماد عواصف غضبي قليلا فأوقف سقوطي في الدمار النفسي وأعادني من طرقات العذاب الى شيء من الواقع. في الشهر السادس من ولادت محمد بدأت أفكر جديا أنه لابد لي أن أعود الى أربد قريبا. بينما في السابق كان مجرد احتمال لقائي بنائلة يجعلني أشعر بحرج الموقف وبذلك الارتباك الذي سيفضحني لا محالة فأعدل عن فكرة العودة اليكم. وفي النهاية أخمدت قهقهة غواني بوخارست عاصمة بلاد رومانيا لهيب نيران غضبي وفي الشهر الثامن من عمر محمد عدت الى أربد سرا.

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

أشعر أن الوقت قد أصبح مناسبا لأقص عليك كيف شاهدت أخاك الغير شقيق، محمد، لأول مرة. في ذلك اليوم الذي ذهبت به بعد طول غياب الى دارنا في حيّ جرن الغزال، سرت بمفردي من محطة الحافلات من خلف سور جامعة اليرموك الجنوبي كي أتجنب مصادفة الناس. وفي زحمة غيرتي نسيت الأسباب التي أساسا من أجلها تركت أربد وجميع هواجسي الأخرى. سرت حذرا فاذا لمحت أحدا أعتقد أنني أعرفه، داريت نفسي بنظرة خاطفة للسماء ثم انتقلت لأمشي في واجهة الرصيف المقابلة دون أن يبدد ذلك حيرتي الصامتة وكأن عيناي تبحثان عن شيء مجهول لم أره من قبل ربما كان سارحا في سحابة عابرة او ربما طواه فراغ عالم لم أدر شكله بعد. ولما دنت بي المسافة الى شارعنا سرت بجسد محموم وقلب ينزف بالألم لا أرى طريقي وأنا أردد بهذيان في داخلي، "خائنة! خائنة!" وكأني أبحث عن سبب لأصمد خطواتي.

منذ جاءني خبر ولادة محمد على الهاتف قبل كل تلك الأشهر كنت قد نسيت كيف أكون سعيدا مثل الأخرين. لكن في طريقي الى حيّنا في ضُحى ذاك اليوم الخريفي كنت بائسا وحيرانا لا أعرف بالضبط ما سيحدث. هل ستثور كبرياء رجولتي العربية بصدري وأغرس السكين في قلب نائلة الخائن ثم أفضحها أمام الله وخلقه؟

أذكر ذلك اليوم بحذافيره. قبل ان أعبر البرندة واقرع الجرس وقفت هنيه طويلة على المعبر تحت ظل شجرة الليمون الشهرية أتشمم الأجواء وأتفقد الحديقة الصغيرة وأتذكر الساعات الطوال التي أمضيتها وأنا أنكش وأحفر التراب وأنقله من مكان الى مكان وازرع الورد والزهور لأسعد حبيبتي. لم يتغير شيئا في الأحواض عما كنت أذكر. شعرت أن الماضي باقيا ولازال يعيش في نفس كل المزروعات والأشياء التي غرستها يداي. وجدت صعوبة في السير وأنا أتصور طيفك وطيف أخيك حسن يجوسان صامتان في سجن الهواء.

ولما عبرت البرندة وقفت فيه امام باب دارنا لأوّل مرة منذ ما يقارب العام ونصف العام وجسدي كله يرتجف وجلا فكل شيئا كان ممكنا. في ذلك النهار الخريفي من شهر تشرين الثاني وصلت وأنا لا أرى أبعد من خطوة قدمي ومرارا كادت شجاعتي أن تتزعزع وأدبر عائدا من حيث أتيت. أنني لازلت أذكر تلك الزيارة بكلّ تفاصيلها وكأنني كنت مسبقا قد قرأت ما كُتب لي معها فأفرغت مساحة شاسعة في ذهني لذلك اللقاء لأسطره في ملفات ذاكرتي وأحتفظ به ليوم مثل هذا.

ربما كانت اللحظة التي تريضت بها أمام الباب وأنا أشاور نفسي هل أستعمل المفتاح الذي بجيبي أم أقرع الجرس كالزائر، أكثر مضضا من أي امر أخر فعلته ذاك النهار. وقفت كالغريب أتحاشى عيون الجيران والمارة وبي فزع أن يتعرف عليّ أحد أعرفه. بعد أن عدلت عن استعمال المفتاح ضربت الجرس ثم وقفت وجلا أمام باب بيتي الحديدي الأسود قبل ان تفتحه أمك. كانت لحظات انتظاري من صميم الجحيم قاسية وحارقة وشعرت انها طويلة وتمتد الى الأبد.

أي جنون هذا الذي أوصلني الى هنا؟ هل بمجرد فتح نائلة للباب ستطلعني على عالمها السرّي فأتحول من جديد الى جزء من حياة هذا البيت الذي أصبح جحيمي بعدما كان يوم ما جنتي؟ كنت عندئذ أعي كل الأمور وأنا أقف خلف الباب. قد تسأل نفسك يا ولدي، وأنت تقرأ هذه الرسالة، "هل كان ابي سعيدا لاحتمال وجود أحدنا، أنا أو حسن، بالداخل؟"

الحقيقة في تلك اللحظة القاسية لم أفكر بكما، بل بأبن الحرام محمد فقط، تلك المصيبة التي تتربص بي. وفيما بعد كم تساءلت ان كنت حقا أردت رؤيتكما او فقط الاطلاع على وجه نائلة وأبنها الذي أجهل من هو أباه. بالرغم من غيظي عليها كان هناك حيز صغير في داخلي يحاول أن يبقي ذاكرتي في قالبها الأول وصورتها الأولى كما لو كنّا على وشك لقائنا الاول.

بالرغم من كل العذاب والغضب في كياني لم أكن أبحث عن مواجهة صدامية مع الواقع المر قد تدمر كل شيء قائم في حياتي. الأهم لم يكن بي رغبة أن أقضي على حياتك وحياة حسن بكشف خيانة أمكما وهتك سرها. وقد تعجب لذلك وتفكر أن أباك كان رجل بلا شرف. ربما! أنني اليوم، بعد ذاك العمر الذي على وشك النضوب، لم يعد يعنيني أن أثبت شيئا لأحد. أريد فقط أن أعيش وأن أنفق ما تبقى لي من أيام في ترف الذاكرة وهي شيئا ليس بمتناول الشباب. أن الوقت المتبقي لي ليس لجرد الشائنات والرذائل والخطايا، بل وقتا أعيشه بالجملة. أن الوقت المتبقي ليّ ليس للتفاصيل، بل للقضايا الكبيرة وليس بي رغبة في مناقشة الهوامش والوقوف عند الإسهاب الصغيرة.

وأخيرا شُقّ الباب وأنفرج عنها. لازلت أتذكر شهقة ذاك الارتباك المفاجئ الذي لقيتني به أمك واختطاف لونها وتجمد محجريها وهما يحدقان في وجهي بذعر أبكم وحولهما رموشهما ثابتة، كثيفة وسوداء. عندما فتحت الباب شعرت أن تلك اللحظة كانت بالنسبة لها أكثر ألما مما كانت تتوقع. وقفت أمامي صامتة للحظات أطول مّما كانت تقصد وبدت لي أنها كانت تأمل أن ترى شخصا أخر غيري فقد وصلت قبل موعدي بساعة.

الحقيقة أنني قد سافرت سرّا من دبّي الى مطار الملكة علياء ظهيرة نهار اليوم السابق وحجزت في فندق بعمّان ثم اتصلت بأمك في المساء على هاتفها الخلوي من تليفون الأوتيل كي أحدد معها موعدا للقائنا واتفقنا على الساعة الحادية عشر من ظهيرة يوم الغد وكان يوم أثنين. قبل أن أنهي المكالمة أصريت عليها ألا تطلع أحد منكما بقدومي وأن تبعثكما كالعادة الي المدرسة وتنتظرني هي بالدار لوحدها.

فبينما كنت أنا أبحث عن مخرجا لوضعنا العجيب لابد أن أمك فكرت أنني أتيتها متأبط شرا. وقفت نائلة على الباب مذهولة أمامي تتفحص وجهي النحيل الشاحب وتصليع شعري وبدلتي الرمادية وحتى أخمس قدمي وهي لا تعلم بالضبط ما كان يدور في رأسي من خواطر. أظنها فكرت أن حضوري المبكر كان بداية سيئة لأزف إليها الموت الذي كان قدرها وأن شرفها وشهامتها كامرأة عربية تأمران ان تستسلم بكبرياء لإرادتي دون أن تقاوم أو تتخبط.

وبينما كانت هي واقفة ترتجف شعرت أنا بوتر رنان من المحبة يهزني لم أكن أتوقع ظهوره بهذه القوة في تلك اللحظة بالذات. وإذا بعطرها كعادته بدأ يتربص بي من المدخل. فجأة غمرني تأنيب عذب ومؤلم وذات الوقت حل بي فرح غريب. بالرغم من أن اختطاف لونها كان محيها لايزال مشع آسر.

وأنا هكذا أتأملها كان في رأسي سؤال جديد يلح عليّ صداه، "كيف عدت اليها بعدما كاد الجرح ان يلتئم وكاد الفؤاد ان يفرغ من أشيائها؟"

أذا صحّ القول إن الفراق هو الوجه الأخر للحبّ والخيبة هي الوجه الأخر للعشق، فالبعد أذن لا يأتي إلاّ بالمزيد من التواصل. شحنة من الطاقة الكهربائية في الروح وفي الجسد تتجمع في بؤرة داخل الصدر تضغط على القلب مثل الدم المحبوس ثم تندفع فجأة بقوة ذاتية كما يتفجر البركان.

قبل ان ينطق أحدنا بكلمة واحدة اغرورقت عيناها بالدموع التي راحت تنهمر بغزارة على وجهها الخالي تماما من جميع المساحيق.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي رأيت فيها زوجتي تبكي أمامي. أتراها بكت لتؤثر على عواطفي كي أغفر لها ذنبها أو على الأقل أخفف من عقوبتها؟ تريثنا هكذا وجها لوجه لبضعة ثواني على العتبة دون ان تفكر حتى في دعوتي الى دخول الدار. أقول لك الحقيقة يا ولدي، حين شُغر الباب عنها للحظة نسيت كل غضبي وحقدي عليها واخذتني وحشة الفراق وشعرت انني بدأت أنحني لأقبل خدها بشوق بعد ذاك الغياب الطويل.

لكن ذاك الشعور لم يدم سوى هنيه قصيرة جدا فخوفي وجزعي من احتمال رؤية محمد داخل البيت جمّدني أمامها فلم أتحرك أنا ألأخر من مكاني لنفس عدد الثواني.

أيقظ بكاؤها شكوكي فوجدت نفسي اتسأل، "هل هذه دموع العهر أم هي دموع الندم تطلب الغفران؟ أكانت تبكي لأنها توقعت ان ترى شخص أخر فرأتني؟ أم لئن احدا قد قرع الباب واحتمال أنه أتى متأبط سكينا وكثيرا من الغضب والعقاب والاخبار القاسية لبيت ربما لم يدخله رجل منذ شهور؟"

وأخيرا شرعت أمك باب الدار وهي تمسح دموعها وتقول، "علي! أهلا وسهلا، تفضل."

كان في صوتها شيئا من الود الحزين وفي نغمته بقايا لتلك الموسيقى التي كنت أطرب لسماعها فدلفت العتبة.

كم أحببت ذاك البيت يوما! كم وحشتني دالية العنب التي كانت تتسلق معرش الحوش بالصيف وتتدلى منها القطوف ثريات خضراء! أما الياسمينة البيضاء فمازالت تتسلق الجدران وتطل من السور الخارجي لتحيي المارة وتعطر الطريق.

حذرة ومتحفزة سبقتني نائلة الى داخل الصوفا وأبقت بابها مردود قليلا. ربما كان ذلك متعمدا للطوارئ لتجد مهربا من سكيني! رفعت نائلة الحجاب عن شعرها وتركته ينسدل على ظهرها وكتفيها. الحقيقة أنني عند ما شاهدتها على الباب في البداية لم أنتبه أنها كانت محجبة ولشدة اختطاف لونها لم الحظ أن وجهها كان خاليا من كل المساحيق - علمت من أمي فيما بعد أن زوجتي كانت شديدة التمسك بالحجاب والصلاة ملتزمة بأمور الدين.

ما أن دلفت الى الداخل حتى لاحظت بقنوط شديد طفلا صغيرا أشهل باسم المحيا كدمية بدأ يحبو في طرف الغرفة حالما شاهدني واتي مسرعا يتجه صوبي ويداه الصغيرتان تستنجدان بي لأرفعه وأداعبه. كانت رؤيته المفاجئة تلك أصعب تجربة مررت بها منذ أصبحت رجل غريبا في مدينته فأغمضت عينين عنه أستلهم التأني والثبات. وقبل ان أحرك ساكنا تدخلت نائلة ونهرت الطفل ثم رفعته وضمته الى صدرها وطوقته بحنان بين ذراعيها وكأنها تحميه مني. لكن الطفل أمال رأسه الصغير مبتسما. ومن بعيد مدّ يدّيه صوبي يداعبني بكلمات لم أفهمها. لحظتها شعرت بهول ما حل بي وأنا أمد يدا مرتبكة في محاولة لا ارادية للامساك به. لكنني لم أستطيع الوصول اليه فقد زاحت امه به حالا بعيدا عني الى الطرف الثاني من حجرة الجلوس.

قلت وقد توقف الكلام في حلقي لثانية، "أهذا هو أذن محمد؟" كان في سؤالي مذاق المر وفي حلقي غصّة تخشى الأجابة.

لو سألتني الآن يا نادر، ماذا كنت أقصد فعله بأخيك الصغير لو أمسكت به، أخنقه أم أداعبه؟ الجواب الصريح في تلك اللحظة كل شيء كان ممكنا. كانت الصدمة التي اصبت بها حين رؤيته عظيمة وأكثر مما تتحمله النفس فاشتعلت نيران الغيرة والغضب في قلبي وأحسست أن جسدي كله يهتز بزلزال واضح.

لكن نائلة لم ترد سؤالي ومباشرة خرجت بالطفل من غرفة الصوفا ودخلت به الي جوف البيت.

اليس عجيبا ان يكون لقائنا الاول بعد قطيعة الغضب والشرف المهدور هو امتحاني الصعب وعقدتي الأولى وان انهزامي سيكون على يد طفل صغير بحجم الدمية.

كنت وحدي بالصوفا فأخذت ذاكرتي تجوس بين الاشياء في الغرفة وأحسست أن أطياف الماضي تجول صامتة سجينة في أرجاء الفراغ من حولي. عادت نائلة بعد قليل بصينية القهوة.

لم أفتتح الحديث لأخبرها بالمعارك الداخلية التي كانت تشتد وتضطرم يوما بعد يوم في صدري فقد قالها منظري فرحت أغير مجري الحديث فسائلتها عن حسن وعنك بذاك الاسم الذي اختارته لك. في الواقع لم يتعود لساني على نطقه فدائما كنت أجد غرابة وأنا أنطقه.

نظرت نائلة اليّ من خلف ضباب الدموع وأجابت باقتضاب تلك الجبارة التي زعمت يوما أنها لا تبكي، " حسن ونادر بالمدرسة. كلاهما بخير والحمد لله." قالتها وكأنها تطلب المغفرة.

وفي تلك اللحظة شحنة من الحزن المكهرب، أو ربما الحب المكهرب، اخترقت أحشائي. شعرت أنني كنت أود لحظتها لو احتضنها كما يحتضن الرجل امرأة، كما كنت احتضنها في أحلامي. أنني أذن لم أشفَ بعد من حبها فقد شرع جلوسي معها نوافذ الذاكرة. غير انني دمت في مجلسي وبقيت هي في مجلسها متقابلين هكذا، جبلين مكابرين بينهما جسر سرّي من الحنين والشوق وكثيرا من الغيوم التي لا تمطر. أترانا قد أدركنا حينها أننا كنّا نبكي لنتحايل على الحقيقة الموجعة أو على شيء ما كنّا نبحث عنه ونؤجل قوله في نفس الوقت؟

حسب خبرتي الشخصية لا أعتقد أن هناك رجل في الدنيا لا يغير على امرأته فقد خُلقنا هكذا من لحم ودم يغلي في شرايينا، نأكل ونحب ونموت ونقتل بعضنا من الغيرة. ولكن الله حمّلنا مشقة جهاد النفس الأمارة بالسوء. كان أنينّي وأنا أجلس قبالة أمك خافتا غير مسموع أمسح دموعي في الظلام وقد صار كل شيء من حولي فاتر مثل ماء الحنفية بينما في جوفي كانت رعشة القلب قوية. لم أعد أسمع غير النبض في عنقي ودقات ساعة الحائط. فقد لساني النطق وامتنعت هي عن الكلام.

كانت الدموع تنهمر وتسيل على خديها في هدوء نهر النيل. بدت لي وكأنها قد استسلمت لقدرها الذي أصبح في يدي. حقها في العيش أو الموت كان قراري وحدي. وفي غفلة منا ظهر محمد من جوف الدار يقول ذات الكلمات التي لم أفهمها وراح يحبو صوبي. لم تنبض نائلة ببنت شفة او تحرك ساكنا لتبعد طفلها عني. بدى أنها قد سلمت أمرها لي لأفعل به وبها ما شاءت.

وفي براءة الأطفال أخذ محمد يتسلق ركبتي ولم تمنعه أمه. وكأنه يسترضيني بابتسامته العذبة جاء ليطلب الجلوس في حُضني بتلقائية طفولية. تكهرب كياني بتعاسة كبيرة وكدت ان تذرف الدمع. لعدة ثواني بقيت على تلك الحال عاجزٌ عن الحركة.

وكأن الطفل نازلني بقوة طبيعية فلم أصمد طويلا امام شطارته. وبدون ان أدري التقطته يدي المرتبكة. كانت هزيمتي امامه مطلقة فرفعته الى حُجري لمداعبته امسكه بحنان كي لا يفلت من يدي. وكان النُصر للملائكة. جلست مبهورا أمام ذلك المرح الفطري أشعر أنه يسرق مني كلمات السخط والغضب. لم أتمالك نفسي من احتضانه وضمه اليّ وكأنني أضم جرحي

الذي أضعت من أجله حياتي، او كأنني أخاف ان يهرب مني وتهرب معه حياة ذلك الرجل الذي كنته يوما والذي لم يسعد بعد باحتضان ابنائه.

كان يجب أن أتوقع كل الذي حدث وكنت بحماقة أشعر أنني أنا السبب في صنعه، بل كنت أنا كاتب قصة حياة محمد القصيرة. لكنني منذ البداية كنت عاجزا عن ألتحكم في تصرف بطلة روايتي. وأنا أغرق في بحر عيني الطفل الأزرق بدأت أقيس نفسي أمام أبيه الذي وضعته أنا أمام نائلة بغبائي وأنانيتي وغيابي.

وكان بي فضول لأعرف أهو رجل يصغرني؟ هل فاقني حضورا وإغراء؟ كان فضولي يزداد وأنا أحاول أن أجد كلمة لأبدأ معها الحديث عن اجتماعها بذلك الغريب الذي تواطأت معه لتخلق هذا الأنسان البريء. لكنني لم أجرؤ أن أتخيلها قد ضاجعته أكثر من مرّة واحدة كانت كافية لبدء حياة أخيك الغير الشقيق.

ذهب تفكيري بي بعيدا وبدأت أتسأل، "كيف حدث ذلك؟ كيف وضعتها في متناول ذلك الرجل المجهول الذي أصبح قدرها وصار أيضا قدري؟ كيف أعرف أسمه؟ هل هو غريبا حقا عني أم أنه رجلا ربما أعرفه أو قد عرفته يوما ماّ؟"

كان يمتلكني فضول شديد. أردت أن أعرف كل الهوامش المثيرة للقائهما وفي أية ظروف حدثت. لا بل في لحظة ما أردت أن أعرف كل التفاصيل العجيبة التي جمعتهما على مرقد واحد. هل كان ذاك الفراش سريرنا. لم يكن بأمكاني أن أكون محايدا تجاهه. كنت أشعر برغبة عظيمة للسؤال عن غريمي.

كنت على وشك الحديث، ولكنني، وأنا أضع محمد على الأرض، بدأت أتسأل في داخل نفسي هل تصمت نائلة وتفضل أن تحتفظ بسرّها الكبير؟ أتراها ستخجل أن تعترف بمغامرتها العاطفية لرجل كان يوما زوجها وحبيبها ووجب أن تشاركه بكل اسرارها؟ الحقيقة التي كانت تعصف داخل رأسي أنني لا أستطيع أن أتقاسمها مع رجل أخر. عن حبّ أم حماقة قبل أن أصل الدار كنت أفكر أنها كانت وستبقى لي وحدي فقط. وأبان لحظات غيظي الشديد كنت أفكر أن أمنحها فرصة قبل ذبحها وقتل أبنها الذي كان يتربص بي ليثبت ليّ أنني انا وحدي كنت ولا زلت سيدها وحبيبها الوحيد وأن أيامها معي كانت أيام سعادة حقيقية. لم أستطع النظر في وجهها طويلا، ولكنني لاحظت عندها فقط أنه كان خاليا تماما من اية مساحيق.

أطرقتُ طويلا ابتلع الدمعة الحبيسة وأغمضت عيني وكأنّني أسقط في بئر. أفقت على صوت خائر منهزم يدندن داخل رأسي: هل غلطت حقا في حقها وأتيت عسى أنني أكتشف خطأ حدسي أو صوابه؟ هل بدأت أعرف قيمتها بعدما فقدتها؟ أختنق صوتي في حنجرتي بغصة أوجعتني فأدرت وجهي نحو النافذة ابتلع دموعي ألقي نظرة سريعة على الحديقة من الشباك المفتوح.

لما عدت من دوامتي كان محمد لازال ينطق تلك الأصوات الطفولية الغريبة وهو يلعب بدميته. وأنا أتفقد بحواسي ذلك البيت العتيق الذي أخذت يوما على راتبي وراتبها قرض من البنك واشتريناه لتكمل سعادتنا. كان ولازال بيتنا الوحيد. كنت أمام مواجهة وجودية مع نفسي. حزني المتدرج جرفني الى ظلمة مطلقة فعشت في تلك الدقائق الساكتة عمرا بأكمله. لابد وأنني خلالها قد بدوت أمامها رجلا محطما ضعيفا وبدون ارادة.

أعن قناعة أم لباقة أخيرا حدست أمك ما كان يدور في خاطري من فضول فتطوعت بالكلام. ربما بعدما شاهدت ما وقع مني من تأن وانا أداعب أبن الحرام. لابد انها قد لاحظت تلك الخيبة التي أفقدتني صوتي.

في البداية بدأت نائلة بعطائي شروحا مدهشة وزعمت أن الشيطان غشها وأن المجتمع منافق ولا يعترف بشهوة المرأة ولا يجيز لها العشق ولذلك، على عكس الرجل، هي مجبورة أن تأخذ كل متعة خلسة حرصا على سمعتها. ولكنها شددت أنها كانت دائما غيورة ومحافظة على شرفي وشرف أولادي.

ثم فجأة قطعت حديثها وغيرت نبرة صوتها وقالت بكل بساطة ودون أية تساؤلات أخلاقية، "سامحني يا علي. لقد كانت هفوة عابرة فرضتها ظروف الوضع النفساني الذي تركتني فيه."

شعرت أنها كانت صادقة في قولها ذاك. وبعدما أبطلت الحديث في النظريات المعقدة للتصرف البشري ونظرة الدين للسماح وغفران الذنوب بدأت أصغي لها وأنا أمعن النظر في وجهها لأقدر مدى الصدق فيما تقول. صارت كلماتها لا ترحم كرصاص تطلقه من مسدس لا يخطئ القلب.

وبعد أن سكتت لثانية، أضافت والدموع تغليّ في مقلتيها وتعلق بأطراف أهدابها وعيناها وهما ترمقاني بثبات، "علي، أنني أحببتك وكنت أشتهيك. كنت مشتاقة جدا لك وأردتك الى حد الجنون، ولكنك لم ترغبني. مع طول سفرك لم أعد أرى الحبّ القديم في عينيك. كانت نظراتك لي خالية من الحنان والشوق والتهاب روحك لروحي. أردت أن أكون بجانبك في دبـّي لأوقد نيران حبنا. ولكن شيء مبهم جردّني من العقل. عندما طلبت منك أن تأخذني معك كنت جادة في كل ما قلته، مستعدة أن أضحي بكل ما أحرزته من تقدم في العمل من أجل حسن ونادر ومن أجل وجودنا نحن الأثنان معا. أنني لم أنتبه لعدم وجود السعادة في بيتنا حتى دخلته أنت."

كانت أمك تقصد من كلامها هذا أن تملئني غرورا وقوة وسيادة ذكورية فوق أنوثتها مثلي مثل الرجال العرب الأخرون الذين يأخذون رجولتهم مأخذ الجد ويبدون بالتنظير والتشخيص بأسباب ما يحدث بينهم وبين زوجاتهم.

لكن كان في تحليل زوجتي حقيقة مهمة أدهشتني ولم أنتبه لها من قبل. أنّني في غضبي وترحالي الدائم بين المدن كنت في الواقع أهرب من لقاء نفسي وفرض وجودي في بيتي كرجل أحب امرأة جعلها منهل سعادته، ولكن لم يكن له طموحات وأحلام هامة كافية ليشركها فيها فتقف خلفه تشجعه وتدفعه الى الأمام. كان سفري لغز حياتي وتعبير يظهر وضعي القلق ومخاوفي من واقعي في ذلك البيت.

لكن هل يعني ذلك أن لا شيء تغير في حياتي منذ زواجي؟ أهل حقا تنكرت لمسؤولية الزوج والأبوة؟ ربما كان هذا صحيح من وجهة نظر أمك ولذلك كان استنباطها منطقيا، ولكن ليس في كل ما قالته فقد كان يمكنّها أن تفلسف رموز حياتي بأكثر من طريقة.

بسبب عملتها الشائنة مع ذاك الرجل المجهول ووضعها الحرج أمامي من المؤكد أنها لم تذهب في تحليلها أبعد من الرموز المعروفة والتي نأخذ أبعادها من نمط حياتنا العامة وفي النهاية لم تكن نائلة تعلم كل ما كان يفتعل في ثنايا نفسي. كدت أشفق عليها وهي تحاول أن تجد الكلمات المناسبة لتسترضيني وتلطف الجو بيننا. كان من الواضح أن أمك كانت تشعر أننّي لازلت أحبها بطريقة أو أخرى، ولكنها لم تكن واثقة من عمق ذاك الحب ومداه وربما كان هذا ما خفف من شعورها بالذنب كامرأة عربية تعلم تماما أن عقاب الخيانة الزوجية هو الموت رجما. من منا بلا خطيئة. أمر أخر كان واضحا لكلانا وضوح شمس الهجير هو أن زلتها كانت كجميع نزّواتي آنية وعابرة ولا وجود لمثلث حب لننتبه له أو نأخذه مأخذ الجد والاعتبار فلازلت أنا الرجل الأول في حياتها وهي المرأة الأولى في حياتي.

تنهدت أمك بعمق ثم نفثت نفسا طويلا واستمرت تقول بنبرة عميقة معاتبة، "أننّي لم أسائلك يوما ان كنت هفوت وأنا واثقة من أنك هفوت مع نساء من كل عرق. ولكن هكذا خلق الله الذكر والأنثى.... الرجل يهفو ويمشي والمرأة تحمل الجنين ليكون شهادا عليها."

لأشباع فضولي حاولت استدراجها للحديث عن أبي محمد، ذاك الرجل الغائب الحاضر، علني أصل الى نتيجة تسعفني على تحديد الظروف التي جمعتهما معا، ولكنها كانت تراوغ كالعادة. من هو ذلك الرجل المجهول بالنسبة لي الذي سرق جسدها مني ونشق عطرها من حواسي؟ هل كانت لذته وجنونه معها لساعة ام لساعات؟ كان من الواضح أنها لا تريد الحديث عنه وإذا قالت شيء لم تبح لي بشأن مهم. كانت تناقض نفسها كل لحظة حتى أنها أحيانا كانت تمزج بين الجدّ والمزح وبين الحقيقة والكذب في محاولة للتهرب من شيء ما.

كان معظم كلامها كذب أبيض لابد لتخفف من حدة وطئه علي. لا أدري ما الذي كان يؤلمني أكثر أنها كانت مع رجلا أخر أم أنه ربما قد تمت خيانتها في بيتنا! الى أي حد ذهبت معه؟ وعندما كان صدره على صدرها هل ألمتها ذكرانا المشتركة على نفس السرير وكل ما كان يجمعنا يوما من حب؟

لم أطرح عليها السؤال مباشرة فقد كان هناك شيء من بقايا زياراتي الى المدن الأجنبية جعلتني أحترم أسرار الأخرين حتى عندما كان يتعلق الأمر بقضية الشرف والخيانة الزوجية. كنت أحترم صمتها وهي تحترم أسراري. أكانت لذكائها المفرط تعلم ما يدور خلدي؟ أم تراها كانت تتظاهر باللامبالاة ولم تتوقع وجود حب ملتهب في أحشائي؟ وكيف كان لها أن تتوقع ذلك وقد انسحبت من حياتها تدريجيا ولم أترك لها المجال لمزيد من التوسع؟ كنت أحس أنها كانت على وشك أن تسألني لماذا جئت؟ ترى أكان شعوري ذلك حدسا أم استنباطا منطقيا لذلك الواقع الموجع الذي كنت محاطا به من كل صوب؟

بكت نائلة أمامي بحرقة لأول مرّة وأنا أستمع لقصتها والتي في الواقع كانت صدّا لقصتي مع نسوة عابرات كثيرات من الشرق والغرب. وكأن بُكائها قد جردني من غضبي وحقدي ففي تلك اللحظة كنت أتأملها بتأثير واضح. شعرت أنها كانت على وشك أن تضع قبلة على جبيني أو تحتضنني في لحظة حنان أو اعتراف بالجميل. لم اقاطعها مرّة وهي تقص على قصتها بإيجاز معتمد وتترك تفاصيلها المتشعبة لخيالي.

قالت، "بعد سفرك الأخير بأسبوع صادفت رجلا أجنبيا بدى عليه الارتباك والخوف. بدى لي أنه ضائع فأشفقت عليه. علمت فيما بعد أنه أسباني الأصل. سألني أن أرشده الى مبني البلدية. قلت له لأهدأ من روعه أنه في طريقي، تفضل وسرّ معي لأوصلك اليه. بعد قليل أتضح لي أنه كان يبغي المتحف الجديد والذي هو قبالة مبنى البلدية. بلغتنا الانكليزية المهلهلة استنبطت أنه سائح فأخبرته أن المتحف الجديد لم يفتح بعد والعمل به لازال قائما ولذلك ليس جاهز بعد لاستقبال الزوار. حاولت ان أرشده الى بناية معرض الأثار القديم."

وهنا سكتت أمك عن الكلام. ربما انها ارادت تدرس مدى غضبي او فضولي، ولكني احتفظت بالصمت.

بعد ما يقارب الدقيقة من السكوت الحرج عقبت وهي لازالت تحاول أن تعرف من النظرة في عيني أذا كان الصمت أفضل قبل ان تتعمق بخصوصيات الحدث. ولما عادت للكلام كان صوتها أعمق وكلماتها ترتجف.

قالت بخضوع، "لكن أما أنه تظاهر بالغباء أو أنه فعلا لم يفهم إرشاداتي فسرت معه لأوصله بعضا من الطريق. أقسم بالله يا علي لا أعلم كيف كان كل الذي حدث! لقد سارت الأمور بسرعة عجيبة. بالطريق انسجمنا بالحديث بلغتنا الإنكليزية الغثة. لكن أعيننا قالت أكثر بكثير من ألسنتنا ففي منتصف الطريق توقف وأقترح أن نأخذ تكسي الى المتحف ودعاني لزيارته معه فلم أزره أنا من قبل وهو كما تعلم ليس بعيدا جدا عن سكننا هذا. ولما أنهينا التجوال في أروقة المتحف دعاني الى فنجان قهوة فسرنا تلقائيا تجاه بيتنا وحصل ما حصل. لم ار الرجل ثانية."

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

أدهشني اعترافها هكذا بكل بساطة ففكرت اما أنها كاذبة او أنها في منتهي الأمانة وطبعا كانت صادقة في كل شيء قالته. اصغيت لها بانبهار تلميذ تلقى كلمات استاذه كما يتلقى شخص في جلسة تنويم مغنطيسي تعاليمه وأوامره من منوّم يفعل به ما يشاء. اكتشفت يومها حتى وأنا أملك قدرها بين أصابعي انني غير قادر علي ترويضها ولا على السيطرة على نارها المحرقة. لم أسألها اي سؤال توضيحي ولا علقّت ولو بكلمة واحدة على التفاصيل التي لم تقلها. ربما أنني لم أجد في قصتها ما يستحق التوقف فقد كانت عادية جدا وممكنة جدا. استمعت لها بذهول وبصمت مخيف وراحت غيوم مكابرة تحجب نظري عنها. تُرى ذلك الرجل الأسباني أبدع في حبها ام هي الي أبدعت في وصف طيبته؟ يا هل ترى كان مخض اختراع منها كسته لغتها أحلاما أنثوية لتثبت أنها عرفت رجلا غيري؟ وأنا بزي أي رجل متنكر لبيئته رحت أنقب بين الكلمات علني أكتشف الأحرف الأولى من أسمه؟ ذهب تفكيري بعيدا، الى كل سنين غربتي وأنا أفكر ماذا تراها فعلت في كل تلك الفترة التي كانت فيها بمفردها؟ أرهقني التفكير ولم تكن بي رغبة حقيقية لاستجوابها كم من الرجال غيره عرفت. كان مجرد الاستماع لها تعترف مضنيا ومتعبا.

أنهت أمك الحديث ودموعها تنهمر وانفاسها تلهث وصوتها يرتعش، "علي، ربنا أمر بالستر. أستر عليّ وعلى حسن ونادر وعلى نفسك كذلك. أن هذا الطفل لا يحمل ذنبا."

اتفقنا أنا وأمك على أن أبقي بعيدا. كان ذاك هو الحل الوحيد فلا يمكن عندما كنت أزور أربد أن أبقي في بيتنا ومحمد لا يكف عن تذكيري بمن هو أبيه. لا يمكن ان يكن هناك ظرفا أكثر تعقيدا وتطرفا. تعاتبنا وقلنا الكثير. كان حديثنا منفعلا وصمتنا مخيف ودموعنا متكابرة. وافترقنا مثقلان بالهزّات النفسية ومشحونان بالانفعالات. بعد ما رأيتكما زرت أهلي في قرية اليرموك وفي اليوم التالي سافرت عائدا الى ناطحات سحاب دبّي لأكون نملة بين النمل، مجرد وجه بين الوجوه. لم أر أمك ولا أخبرتها أنها كانت وستبقى، رغم خيانتها، هزائمي وانتصاراتي، حججي وقناعاتي حتى وأنا أحقد عليها أذكر نفسي أنني أنا الذي تنكر لها. ان كل ما اعرفه عنها ليس له علاقة بالمنطق او المعرفة. من منّا الأكثر خيانة؟ هي التي وضعت طموحاتها وأحلامها حيز التنفيذ أم أنا الذي وضع نزواته فوق كل شيء؟

سافرت عائدا الى مقر عملي مقتنعا أن أبقى في دبّي والعيش هناك نهائيا ولم أحاول أن أفاتح نفسي بالعودة. كان لا بد أن أبقى غائبا عن أربد لكي تحسم هذه الأمور الغامضة بيننا نهائيا.

9

ولأسابيع خلت بعد عودّتي الى دبّـي كنت حزينا بما فيه الكفاية كلما انفردت بنفسي لأكون على حافة البكاء. وليلة بعد ليلة، وأنا ملقى في الظلمة على سريري أدخن السيجارة تلو

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

الآخرى، كنت أتسائل، "أية حماقة قد أوصلتني الى بيتها؟ البيت الذي كنت أظنه يوما ما بيتي واذا بي أدخله وأغادره غريبا عنه. وكيف تمكنت أخيرا من عبور معبر الحديقة الذي امتد أمامي طويلا حتى هُيء لي أنني لن أستطيع ابدا النفوذ منه الى الباب الخارجي ونقاوة هواء الشارع العام؟"

وفي ذلك الوقت الحرج وصلني من أمك رسالة قصيرة تشكرني فيها على تفهمي لما حدث وتحييني وتصافحني على نضوج مشاعري. وبأسلوبها العميق المتفهم لدقائق الآمور أضافت أمك تقول لتعلل ما حدث بيننا، "أن المجتمعات البشرية عامة لا تسمح بكشف أو استحداث تركيبات في العلاقات الاجتماعية وأن كانت هذه ثابتة وصميمة حتى يتم وضعها في نظام محكم ومدروس. أن البنية الفكرية المكشوفة والمقنن لها ولذلك المفروض أنها الصحيحة في واقعنا العربي، هي أن كل شيء في الحياة العامة هو مجرد إفصاح عن مواقف أنسانية تقليدية مقبولة تعمل في النهاية لصالح الساسة والمكانة والمال والسلطة العامة. الوقائع والحقائق التي أصبحت معروفة ومفهومة عندنا ليست إلا ما يقوله مجتمعنا ويقبله عامة الناس الذوون تبنوها منذ قرون على أنها التصرف الطبيعي. ولذلك أن الفشل في استجداد وتأليف القيم والتصورات على اسس ومبادئ نموذجية مستحدثة في صورة نظريات متطورة مكتملة ومقبولة من الأغلبية، يترك الممارسات الثنائية التي هي في الواقع من واقعية وطبيعة البشر بدون الأساس الاجتماعي الضروري ليحتضنها. العادات العربية تقدس النموذج الأساسي للعلاقات بين الغالبية ولا تترك متسعا للثنائيات. تراخي قادتنا ومفكرينا في تعّريف التصرف الإنساني وعدم قبلوهم بوضوح لشواذه ينقص مجتمعنا الأساس النظري لتنظيم منهجي لأجزائه على نحو يجعله واقعي وذي معنى لعين المستغرب والباحث بصفة عامة. وعلى الرغم من كل تلك الثورة التي جندها بعض الأفراد دفاعا عن حقهم في أن يعّرفوا التصرف البشري الاستثنائي، بقيت الاوضاع العربية تعمل لصالح اولائك الساسة والمفكرون الذوون يعيدون تكرار، حتى الإملال، آراء تقليدية مألوفة ويدّعوا لأنفسهم الشهرة والمكانة الصالحة المصاحبة لذلك."

وهكذا ببضعة كلمات ذوات رنة واقعية وفلسفة نامية من ممارساتها في شق طريقها العملية، حتفت نائلة أمر زواجنا. من وجهة نظرها افترقنا فراقا حسنا ونحن نتصافح. ولكن الموقف من وجهة نظري أنا الرجل الذي يصعب عليه الانكسار، بقي معلقا. بالنسبة ليّ، أنا وأمك كنا في حالة انفصال أو كما تعرّف عاميا، حالة هجر وليس طلاق.

ولمدة طويلة بقي كل شيء في داخلي على وشك الانفجار فوجود محمد النغيل بينكما كان باستمرار يثير رجولتي كفتيلة على وشك أن تشعل بركان نائم. ربما للهرب من أمك وأراءها المعقدة ومن محمد وفرضه وجوده السام عليّ، على رأس السنة الجديدة قررت أن أحتمي بالإيمان من خطايا نفسي ومن خطايا الأخرين التي الُصقت بي قهرا. في صبيحة كل يوم صرت أستيقظ مع الفجر على صوت الأذان لأودُي الصلاة في أوقاتها. ألم يقال إن العبادة

درعنا ضد تطرّف الأفكار! وكم من الأيام قضيتها في تلك الغيبوبة الدينية بين الرهبة والذهول وأنا أحاول ترويض جسدي على العبادة وتعويد ذاكرتي على النسيان.

ولأشهر رحت أتعبد بنهم وأحاول أن أنسى نائلة وأنسى خيانتها وأنسى أبن الحرام وأنسى حتى وجودهما معي على نفس هذه الكرة السابحة في فضاء لا تدرك أبعاده السعة الذهنية للأنسان. كنت أريد أن أستعيد سيطرتي على حواسي التي رغم عني بعد تلك السنين لازالت تتلقى أوامرها من نائلة. في موعد كل صلاة جاهدت لأسترجع ذاك الرجل الذي كان يوما أنا الى مكانته الأولى، الى هيبته وحرمته وشرفه والى قيّمه ووضعه بين الناس. وفي البداية اعتقدت بأنني نجحت في ذلك بعض الشيء. ولكنني سرعان ما اكتشفت أنني في الواقع لم أنجح لا في نسيان محمد ولا أباه المجهول ولا أمه التي هي لازالت زوجتي فحبي لك ولأخيك حسن كان الفخّ الذي وقعت فيه ليعيدهم جميعا الى داخل رأسي. ولما جاء شهر الصيام كنت أتصور نفسي أجلس الى طاولة الأفطار معكما، أنت وحسن، أصوم وأفطر معكما، أتسحر معكما وأتناول نفس الأطباق الرمضانية التي أعتدتما عليها في أربد في مطاعم دبـّي العربية. ولكن في النهاية وجدت أنني لم أكن أفعل سوى التوحد مع أمك فقد بقيت نائلة الوطن وكان كل شيء يؤدي اليها. ولكن كيف ليّ قطع تلك الشعرة التي تربطني بأمك وكسر السلاسل التي تشدني اليها؟

وانتهى رمضان وكان يوم العيد الصغير فاتصلت بكما ورددت أنت على هاتفي. تحدثت معي طويلا تشرح أمالك وطموحاتك وما الذي ترغب أن تدرسه بالجامعة بعدما تخلص من المدرسة. أعجبني كلامك وثبات شخصيتك وتمنيت لك النجاح ثم وعدتك بأنني سأحظر لزيارتكم في أقرب فرصة ممكنة. ثم تكلمت مع حسن وكان على وشك أن يجلس امتحان التوجيهي ويأمل بدراسة هندسة مدنية في جامعة للعلوم والتكنلوجيا. وعدته بأنني حتما سأحضر الى أربد لحضور حفل نجاحه بالدارسة العامة. ولكنني أخليت بوعدي لكما كما أخليت بوعود كثيرة كنت قد قطعتها لكما من قبل.

ومع بدء صيف عام 1998 بدأت أنزل من طوابق سمّوي. أصبح كل شيء من حولي سجنا أقاد اليه فجرا مغمض العينين وأنا أستيقظ للصلاة لا لتهمة واضحة، بل لخليط من الشكوك والتهم. كيف غدى ممكنا لذاك الشاب الذي كنته قبل عشرون سنة بحماسه وعنفوانه وشاعرية أحلامه أن يأتي عليه زمنا عجيب كهذا يجردني فيه من كل شيء ويزجني في زنزانة فردية أدخلها باسم الشرف والغيرة العمياء والحب الابوي؟ أتراني تحرشت بالقدر أكثر مما يجب ليرد على تشاؤمي بكل تلك الفجائع والكوارث المهولة التي لا تأتي سوى دفعة واحدة؟ تلك هي عبثية الحياة التي يكفي مصادفتها مرة واحدة لتأتيك أما بالسعادة والحب والحظ الذي لم تكن تتوقعه أو بالمرارة الغامضة ومذاق اليأس القاتل والألم الدائم.

لقد تجمعت كل خيباتي الذاتية بفرد واحد هو أخاك محمد بطفولته وببراءته، أبن حرام سيحمل الى الابد أسمي عنوة عني وعن كل أخلاقيات المجتمع وكل ما وضعه الدين من

عقبات صارمة وقاسية أمام الزنا. كان محمد كتلك الشعرة التي أن قطعتها ستكسر أعمدة بيتي وتهدم سقفه فوق رأسي وكنت أعتقد أنني دفعت ما يكفي من الضريبة للقدر ليبقى لي شيء واحد قائم أخاف عليه من السقوط هو مستقبلكما وأبويتي لكما، أنت وحسن.

وكم في ظلام حجرة النوم، وليس من حولي حبيب يخفف من ألمي، بكيت ذلك البكاء المكابر الذي نسرقه نحن الرجال سرا من ذكورتنا. وكان لابد أن لا أتعمق كثيرا في الحلول فأني بذلك كنت أستدرج القدر أو أتحداه ليعطيني صفعة أخرى قد لا أنهض منها. وأخيرا في ذلك الصيف جعلت الصمت ليّ قرينا وصديقا. ولتجنبي طرح الأسئلة المحرجة على نفسي، فأجوبتي كانت دائما توصلني الى ذاك اليوم الذي جمعت فيه حقائبي لأول مرّة لأستبدل اعتدال مناخ جبال الأردن بحرّ صحاري الامارات، عدت الى السفر والكأس والخمر واستأنفت ترحالي أطوف مدن العالم كي أربد ومن بها من أحبة. كنت أسافر وأعود الى دبّي ولا أحد يودعني ولا أحد يستقبلني وحيدا هكذا من كل الأحبة والأهل والصحبة. سكرت نخب النسيان وسكرت نخب المكابرة وسكرت نخب الكبرياء ونخب الشرف والرحيل الدائم. وعلى أسرة الغرام كان نحول أجساد الغواني يذكرني بامتلاء جسد أمك وبخطوطه الممتلئة وعطرهن الرخيص بعطرها الطبيعي. كيف كانت تتسلل نائلة الى رأسي وأنا أمام اية امرأة فتوقظ ألمي المستعر وشهوتي المتراكمة لاحتضانها؟ ما سبب ذلك التوتر الغامض الذي كان يسكنني أذا ما اقتربت من أية امرأة أخرى؟ ما سبب ذلك الجوع الدائم اليها الذي كان يجعلني لا أشتهي امرأة غيرها؟ كنت اريدها هي لا غير. عبثا كنت أتحايل على جسدي، عبثا كنت أقدم له امرأة أخرى، كانت نائلة شهوته الفريدة ومطلبه الوحيد. والأكثر إيلاما إذا مررت بيدي على شعر امرأة أفقد فجأة شهية حبي وأتذكر شعر أمك الأسود البنفسجي الطويل الحالك الذي كان يوما يفترش وسادتي. فجأة كنت أكاد أن أجهش بالبكاء على صدورهن وأعترف لهن، " أنني لست سيد جسدي فأنا أعشق زوجتي. أنني عاجز عن الحب لأن ذكورتي لم تعد ملكي أنما تتلقى أوامرها من امرأة تقطن بيتا لم يعد بيتي."

أستمر حبي وحقدي معا على أمك ينموا وتمتد جذورهما وتتضاعف أفنانهما واوراقهما وفروعهما لتظلل كل شيء حتى وحدهما انفردا وطغيا على حياتي. في شقتي الشاهقة في دبّي كان شبح أمك ينتظرني ويربض معي طيلة الليل فتحولت الى عاشق متقاعد. كنت أطفئ التلفاز وأجلس منفردا في شرفتي في أنوار الميناء لأعود الى السكوت الخافت وتجنب طرح الأسئلة نفسها أدخن سيجارة تلو الأخرى وأفرغ الكأس تلو الكأس. والشهور تتحول الى سنين وعمري كالماء ينساب من بين يدّي، كانت عشياتي صامتة لا أرى أحدا في عزلتي ولا أحد يعرف ما كان يضطرم في قلبي الذي كانت نبضاته لغط تكسب السكون وحشة. وليلي يتعرى هادئ يلتف بالظلمة كنت أحدق بالبحر فأرى أمواجه تعلو بلطف وتنداح بكسل تمتطيها خيول الماء بأعرافها البيضاء. والشوق يضنيني والعدم يخفني والعتمة تخفي دمعة هطلت على خدّي في خجل قبل أن أطلق للحزن العنان بمزيج من الغضب والعاطفة فأوصد باب شقتي كي لا تفضحني عاصفة الحزن التي تصرخ في صدري على مصابي الذي لا أرى ليّ منفذا منه. وأنا

بين السكر والصحو ممددا بذهول على فراشي، كان شبح نائلة منهكة من الحب ينام قربي وقد تعرت وركدت مثل بركان خمد. فاذا أتى الفجر ذهبت حبيبتي من جنبي وكل ما في البحر توارى في النور فيهدأ عذاب الروح وأشعر براحة كاذبة لأني لا أرى أحد معي فأنهض لأبدأ يومي. وهكذا حدث انهياري وخيبتي الكبرى بحيث أحدثت عندي عقدة رجولة.

وتعاقبت السنون عليّ وحياتي خلاصة تسلسلات حمقاء وأمري ثابت لا حسم فيه. لم يبق من الماضي الذي تحطمت ركائزه، سوى شبحه البعيد تحت خيط متلاشيا من الضوء وكل شيء حوله مما كان عزيزٌ عليّ أختفي تحت ضباب لا حد له. وفي قصور الذاكرة المهجورة عندما كان يفاجئني الظلام في أطلال حبي، كان يزورني شبح نائلة في فستانها الأحمر الياقوتي مع ذاكرة عطور أشجار ياسمين أربد المثقلة بالزهور. مرّ الزمان وبقيت ذكرى تلك الفتاة التي التقيت بها في حفل ذاك العرس البهيج رقراقه الحنين في صدري وصدى صوتها يأتي كصدى أغنية لفيروز وقت السّحر. ورغم خيباتي المتكررة معها كانت كل محاولتي لنسيانها لا تجدي فكل شيء يذكرني بها فأعشقها من بعيد بتطرف النسيان وبتطرف الذاكرة. وبتناقض العشق والكراهية، كان خيالي كما كانت خواطري كلها خاضعة لها رغم تكرار تبرئ منها. ومضى العمر قدُما وأنا جوالٌ بين المدن. عدى عن زيارات خاطفة لأراك أنت وحسن، لم أعد الى أربد الا في المناسبات كالأعراس والوفيات او كما دعت الظروف.

كان لنيروز (أول يوم في الربيع) عام 2003 طعم المرارة الغامضة ومذاق اليأس القاتل عندما جمع الدهر الخيبات الذاتية والخيبات القومية مرة واحدة فبدأت أعيش بين فجيعتين، مأساتي بأمك ونكسة العرب كلهم بالعراق. كان قدري يتربص بي عن طريق آخر فقد جاء اجتياح كتائب الجيوش الأمريكية الجريء لبغداد على مرأى أبناء العروبة كلهم لينزل الإنسانية جمعاء عدة طوابقا في سلم اليأس دفعة واحدة. بذاك الزيف والرياء المفرط وبمظاهر الغنى والوجاهة الحديثة التي يلبسونها بخيلاء، أثبت الفرنجة مرة أخرى أن القدر لازال منحازا لهم وقد ألمني هذا الاستنباط كثيرا كما، مما لا شك، قد ألم كل أنسان تنبض الرحمة في قلبه على كرتنا الأرضية. وكم أدهشني وأخجلني واقع العرب وكم بسهولة قهروا فمكر الطغاة لا يقهر الا الضعفاء ما بقي الجهل فادح بهم يختال بتواضع وحشمة تحت برقع وحجاب العرف والعادة.

أن تأنيب الضمير رغدٌ لا يملكه إلاّ الفقراء الذين لا طاقة لهم لمناقشة الطغاة في ظلمهم. جاثون تحت جبروت الغازي الذي لا يرحم، بقي سادة العرب وبال على الأمة بلا غيرة ولا عار ساذجون يسكرون بالجاه والمال ويرون في التجديد خطر على مناصبهم وكأنهم يعيشون حقيقة عتيقة كما الملاح الضائع يبحر يمّ الأطلَس على ضوء نجوم ربما لم تعد موجودة منذ زمن جارف بالبعد. لم تبق الحرب لشباب أرض الرافدين شيئا يحتجون به على وجودهم المقهور سوى نسف أنفسهم في الصباح الباكر. والتاريخ يسجل كبوات قادتنا وسقوطهم المستمر الى أسفل، تحت أسواط الظلم من وسط الحرائق والدمار والرماد ارتدت كل مدن

العراق المحاصرة تأخذ زمام الأمور وتعيد للشرق كرامته في الوان من القتال. وقفت شباب العرب جسورة مقدامة مستعدة لمنازلة الخصوم ترفع بيارق ذاتية أن "لا إله إلا الله".

قبل اقتحام كلاب الحرب المسعورة حدود العراق صدف أن كنت سائحا في باريس، وهي مدينة خلابة كذكرى جميلة تغريك وتربكك معا، تملأ فراغك وتجردك من التعب في آن واحد. لم تُخلق عاصمة بلاد فرنسا لتزورها بمفردك وتتجول أرجائها الغنائة من دون أن تكون حبيبتك على ذراعك. الناس في تلك الديار أغلبهم من الطبقة المستريحة، خطواتهم سريعة وواثقة وأجسامهم تغلب عليها السمنة والنسوة اردافهن الكبيرة محشوة داخل بنطلونات الجينز الضيقة. وأبواب الجحيم مشروعة على وسعها تنفث منها نيران وأدخنة أسلحة الدمار الهائلة على أبرياء العراق وفلسطين، كانت شمس الشتاء ساطعة في سماء باريس القارصة والشوارع تعوم بالآلاف من الرجال والنساء يلوحون لافتات مكتوب عليها 'لا للحرب'. ورجال الشرطة الفرنسية تطوق المسيرة من كل حدب وصوب والطائرات المروحية من فوق الرؤوس تحرس السماء وتتجسس على الناس، سرت مع المظاهرة أهتف مع الهاتفون يتغنون بالسلام الى قلب المدينة حيث التحمت بها مسيرات قادمة من جميع الطرقات الفرعية. تظاهرت في ذاك اليوم حتى ذاب جسدي في أجساد من أجناس أخرى وأديان أخرى وألوان أخرى تجمعنا إنسانيتنا. كمياه المحيط تموج وتهوج سارت البشر قدما وتلاقوا في موجة السلام العاتية في ساحة الوئام. كان صوتي مع الأصوات مشروخ تحقنه الدموع على مآسي العرب الكثيرة. وعندما مالت الشمس للمغيب، وقد جفت الحلوق وتعبت الاقدام من السير، تفرقت الحشود والكل واثق أن الحرب باقية لا محالة. وفي بغداد أخذت الجند الغازية صور تذكارية أمام الخراب ورفعوا أعلام النصر ووقفوا بأحذيتهم على جثث الشهداء.

وفي تلك الأثناء والحرب دالعة نيرانها الشرهة تحرق في طريقها الأخضر واليابس، ربما لعقدة نقص او لشعور بالذنب، بدأ الأحساس بالغربة يزحف على جسدي كالهواء البارد وينتابني حنين شديد للوطن. في الليل وأنا أطوف بشارع الشانزليزيه أو أقف تحت قوس نصر نابليون في وسط باريس، كانت أوجاع العرب ترفرف تحت ضلوعي في ضربات في القلب قوية في تتابع وانتظام مع ضربات العدو على مدننا المستباحة فتحول حنيني للوطن الي شيء محسوس رأيت صوره من خلال أشباح الشهداء كأنما أراه أمامي فبكيت على أوطاني المستباحة وقطعت زيارتي لفرنسا وأضرّت عائدا الى دبّي.

10

مازلت أذكر ذاك المساء العجيب الذي بدأ العدّ التراجعي لنهاية أسفاري عندما رّن جرس الهاتف بتوقيت أخبار قناة الجزيرة المسائية وأجفلني من شرود أفكاري. لفرحتي كان أخوك حسن على الخط وبمجرد سماعه صوتي بدأ يتحدث بحرارة وشوق أسعداني وأخرجاني من رتابة صمتي الليلي ووحدته. كان سماع صوت أحدكما في ذلك الوقت التعيس بهجة بحد ذاته والصلة الوحيدة التي ظلت ليّ لتربطني بالواقع بعدما سدّت أمك أمامي كل الطرق الموصلة

اليكما. استبشرت خيرا فحسن كان دائما يحمل أجمل الأخبار، ولكن هذه المرة كان يحمل ليّ أكثر من هذا. راح أخوك يتكلم بغبطة وفرح عن تخرّجه من الجامعة بدون انقطاع - وكان ذلك متوقعا - فترك في نفسي أثرا طيبا. كنت أستمع له ولكن القلب ذهب بحماقة عجلة اليها، أمك. كان يكفي أن أعرف أن تلك المكالمة كانت أتيه من بيت هي سيدته لأعود عاشقا مبتدئا بكل انفعالات العشق وحماقته. ولكن صوته أعادني الى الواقع عندما قال، "لقد قررت أنك عندما تأتي ستبيت معنا هنا في بيتك لأصحبك أنت وأمي معي الى حفل تخرّجي وهو بعد أسبوعان من الآن. الواقع الحفل سيكون يوم الجمعة 14 تموز وقد حجزنا قاعة الأندلس."

نزلت كلمات اقتراح حسن 'أن أبيت معكم' عليّ كالصاعقة. رغم كل السنون التي سرّت لم أكن بعد جاهزا نفسيا لزيارة خاصة لبيتنا كتلك التي كان حسن يدعوني اليها وفضلت لو كانت في ظروف أخرى او حتى أن لم تكن. فجأة أصبت برجفة باردة هزتني من أعلى رأسي الى أخمص قدميّ فصرت أرتجف وأرتعد وتصتك ركبتاي وتطقطق اسناني فغدوت عاجز حتى عن الأمساك بيد الهاتف. شعرت أن صوتي قد أنفصل عن جسدي وأنني لا أقدر أن أجيب ولو بكلمة مبروك. ولكن رأس حسن كان مشغولا بقرحته الخاصة ليلاحظ تلبكي واضطراب نفسي وأستمر يتكلم دون أن توقف.

وأخيرا تمالكت زمام أمري وبعد فاصل سكوتي الحرج قاطعت حديثه وأجبته بما كان لا يتوقعه وفي حلقي تلك الغصة القديمة التي لازمتني أيام تغزلي بأمك. "الحقيقة يا ابني أن ظرفي الآن صعب."

فقال معاتبا وفي صوته نغمة حزينة، "يا أبي لا يمكن أن هناك ظرفا أحسن وأهم من حفل تخرّجي لتأتي الينا. أنني واثق إن لم أجرك الى مناسبة سعيدة كهذه قد تمضي عدة سنوات أخرى قبل ان تعود الى الدار ونراك. يجب أن تكون موجود في حفلي. أن وجودك بركة. أفعل ذلك لوجه أبنك. يجب أن تقف معي في ذلك اليوم."

كان حسن بديهيا يدرك نقطة ضعفي ويعلم بالضبط مكانته عندي فراح يلعب على أوتار قلبي وهو يتكلم على الخطّ بحرارة وشوق كأن الكون كله في تلك اللحظة كان ملكه. ثم قال مكابرا وكلامه رقيقا ضعيفا وكأنه يتوسل، "أنني لم أطلب منك شيئا في حياتي، ولكنني الآن أريدك أن تقف جنبي في حفلي. لن أقبل بغير ذاك بديلَ."

وكي يؤثر على أكثر بطيبة قلب نادى حسن محمد وأنا أسمعه يقول له، "حمودة، تعال كلم بابا. أخبره أنك تحبه."

أرتعد جسمي كله واسودت الدنيا أمام عيني وأنا أصغي للولد يتلعثم بالكلمات كالأطفال ويطلب مني أن أحظر ومعي له دراجة بعجلين وكان حتى آنذاك يركب دراجة بثلاثة عجال.

تحاملت على نفسي وبقيت على الخط دقيقة أكراما لحسن لأسمع الربيب وكان ذلك جدا موجعا قبل أن أختصر المكالمة وأغلق السماعة في وجهه من دون أن أنطق بكلمه.

من دون علمي ولابد رأفة على أبنها وكي لا تحرمه من عطف أب كاذب، كانت أمك تشتري اللُعب لأبنها من أسواق أربد ثم تقول له، "هذه الهدية وصلتك من ابيك." ويوم عدت كانت الدراجة ذات العجلين مخبأه بانتظار عودتي.

وليظهر أصراره على حضوري حفله، كان هاتف حسن يأتي مرة كل يوم ثم مرتان وكنت أتمسك به وأستطيل بقائه على الخط وكأنني أستنجد بصوته ليبخر جانب من عزلتي.

كانت تلك المكالمات بداية مرحلة جديدة في حياتي وبدأت عمري الأخير بالعد التناقصي. لقد قلص حسن رقعة حياتي ومعها حسم ساحة الآمل والترقب بكلامه وكأنه القدر. كدت أحقد عليه في البداية، ولكنني في النهاية استسلمت له دون مقاومة وبلذة غامضة وبفضول رجل يريد أن يعرف كل أمر أبنائه. الحقيقة لقد كان يمتلكني أحساس غريب لمعرفة الى أي حد يمكن للقدر ان يكون أحمق ولهذه الحياة ان تكون غير عادلة. أتراني لحظة قبلت حضور حفله كنت شاهدا على مأتمي وعلى الحقارة التي يصل اليها البعض من دون خجل؟ أتراني في غيابي عن أربد كنت أصر على السعادة المطلقة وبدلا منها عشت في حزن مطلق ذهبت معه الى أبعد نقطة في تعذيب النفس؟ أنا الرجل المفتت الأطراف لا اراديا فجأة أمتلئ وجداني برغبة شديدة لأكتشف كم بقي لي من ذاك الزمان الغابر فقرار عودتي كان خارج المنطق. أنا الذي كانت حياته عاهرة وهبتها للملذات السريعة المشبوهة التي كنت أغتصبها على عجل وكنت أجد سعادة نادرة وأنا أقارن نفسي بتفاهة الأخرين وأجد في هزائمي الذاتية دليلا على انتصارات أخرى ومغامرات غرامية لم تكن في متناول الرجال الأخرون.

هل كانت عودتي الى أربد لأقوم بدوري العائلي الملزم به وأنتهز فرصتي لألعب دور الأب بكل مسؤولياته وواجباته ذلك الدور الذي لم أوفق في أدائه منذ البداية؟ الآن فقط بعد أن ثكلت بحسن ورملت من أمك في يوم واحد، بدأت أفهم أنني استجبت لنداء أخيك وعدت الى أربد بالحقيقة تلبية لنداء اليرموك السري الذي كان يلاحقني ويطاردني من مدينة الى مدينة كما كان يطارد نداء حوريات الجزر المسحورة بحارة فنقيا الى صخور البحار السوداء لتلتطم بها سفنهم وتتكسر.

ولأتجنب المبيت عندكم أكثر من سواد ليلة كما كان حسن مخططا، عدت الى أربد لأخر مرّة ظهيرة يوم حفل تخرّجه، ولكن لم أكن بعد أدري أنه كان يخفي في رأسه مشاريع أخرى قد أعدها ليّ غير حضوري حفل نجاحه. أستقبلني حسن بشوق جنوني في المطار حتى بدأت أتسائل هل حقا هو سعيد بعودتي؟ كان طويل القامة أسمر البشرة إذا رأيته من بعيد خيّل اليك أنه متلبك الملامح اما ان شهدته عن كثب اكتشفت كم هو وسيم ومتناسق التقاطيع خفيف الظل لفرط ميله الى الفكاهة والنكتة وكم كان سعيدا. وفي الطريق الى أربد وهو يسوق سيارة أمه

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

التي أتى بها ليستقبلني بالمطار، راح يسألني عن أسفاري وأخباري ويحدثني عن آخر التطورات في البلد وعن طموحاته وعن فرحه بعمله الذي سيبدأه بداية شهر آب. سألته ماذا يريدني أن أهديه على نجاحه ومباشرة وبغير تردد قال دون أن ينظر اليّ، "سيارة."

أجبته، ولم يكن ثمن السيارة عائقا ماليا عليّ فحسابي بالبنك كان ولايزال تخم ويعد بمئات ألألوف، " تكرم حبيبي. أنك تستأهل أكثر من ذلك. أعتبرها وصلت."

أصغيت اليه وأنا أستعيد بحواسي وذاكرتي شوقي إليه وإليك منبهرا بنموه وامتلاءه وبشبابه المتفتح على الحياة وأحاول أن أتحزر فيما أذا صارت له حبيبه. وبدون الكثير من التحليل لاحت لي فكرة لتفسير ارتباكه وهي إن للفتى مخططا في رأسه الشاب لإعلان خطوبته قريبا وقبل رجوعي الى دبيّ. وكأنه يريد ألا يقول أكثر مما كان يرغب قوله أخذ يحدثني عنك فأصغيت بتلهف ولما بدأ يكلمني عن محمد سرعان ما عدت أتسائل بنفسي عن أمك. اين كان يمكن أن التقي بها في البيت أم في مكان غيره؟ واذا التقينا هل سنكتفي بالحديث العام أمامكما؟ هل ستكون نائلة بالحذاقة بحيث تبعد أبن الحرام عني، أم يا ترى ستحضره إلى قاعة الحفل معها وهي لابد تعلم أن وجوده سيثير رجولتي كفتيلة على وشك أن تشعل بركان نائم؟

وطيلة الوقت على الطريق من المطار الى أربد كان هناك شيء داخلي ينزف دون توقف، عاطفة جديدة للغيرة والحقد الغامض. وحتى قتلها بذاك الحادث المروع وفيما بعده لم يفارقني ذلك الشعور الأسود يذكرني في كل لحظة بخيانتها ووجود محمد لأثباتها. ولما اقتربت بنا الطريق من أربد بدأ شيء من القلق يتسرب الى نبرة صوت حسن فسكن الصمت بيننا بقية المسافة وكلانا تحاشى الحديث وكأننا نحذر قول ما لا يحب أحدنا أن يسمعه او نخشى السؤال عن أمر لم نتوقعه.

عندما دلفت عتبة بيتنا بوجه مكفهر أُختطف كل لونه لانزعاجي النفسي، كانت أمك في انتظاري وحدها تجلس على مقعدها بالبرندة. شعرت وأنا أقف امامها نتصافح بمنتهي الأدب والاحتشام بينما كانت أعيننا تتقاذف النظرات الحادة، بسخافة الموقف وبأنني أقف على الحد الفاصل بين العقل واللأعقل، بين البكاء والضحك. تكلمت أمك هكذا دون مقدمات ودون أية نبرة حياء او فرح مميزة ودن أرتباك أو خجل واضح فهي مما لا شك قد أعدت نفسها للحظة لقائنا بأنائها الثابت. كنا، هي وأنا، أسيريّ تلك اللحظة المجردة التي تقربنا من أشواك الأدراك لاستشفاف ما وراء الأفعال والأقوال التي قادتنا الى هذا الآن الحرج. وأخيرا تحدثت اليّ أمك وكأنها تواصل حديثا بدأناه البارحة. صوتها لم يتغير يشرع شبابيك الحنين القديمة وربما لهنيهة قصيرة موجعة كدت ان أدنو منها لأحتضنها.

قالت نائلة، "أهلا علي." وهي تضحك تلك الضحكة الطفولية التي أسرتني فيما غبر. ما أغرب علاقة تلك المرأة بالزمن وما أغرب ذاكرتها! هل كانت قاصدة أن تضحك بذلك النغم الأنثوي المرح؟ ثم أضافت أمام صمتي، "كيف أنت؟ كيف حالك؟ وصحتك، أن اشا الله بخير."

أجبتها وأنا وسط الزلازل الداخلية وعيناي تبحثان عن محمد، "أنني أحاول الصمود أمام خيانات القدر."

قالت، "كلنا نحاول ذلك." وبعد شيء من الصمت أضافت مترددة ولابد أنها رأت القلق في عيني وحزرت أنهما تبحثان عن أبن الحرام، "الولد عند دار خاله."

أذن صدق حدسي كي لا يعكر وجود محمد جو يوم حسن أرسلت الطفل الى منزل خاله ليمضي الليلة مع اولاده. أنفرد تعقيد حاجبّي وسألتها بشيء من المرارة، "أتمني أن أفهم سبب إصراركم عليّ جميعا بالحضور؟"

فقالت وكأنها تطمأنني، "سيكون حسن جدا تعيسا لو تغيبت عن حضور حفله."

" البركة بأمه." أجبتها بتهكم.

قالت بعتاب مكابر، "كلنا نحبك."

أدهشني جوابها وأيقظ قلبي من سباته وبثّ في جسدي شحنه كهربائية من المشاعر المتشابكة. 'نحبك' هكذا بكل بساطة وكأنها كانت واثقة أن تلك هي الكلمة التي كنت أنتظر سماعها. وطبعا حدسها كان في محله فقد وجدت نفسي لازلت مرتبطا بها فهانا أهرب منها اليها والى ذاكرة حب لم يعد يصلح للاحتفاظ فقد همدت نيرانه الى رماد بارد بعد سنين الصقيع والخيبة والخيانة. ولكن خلوتي المغلقة بأمك لم تطول عن بضعة الدقائق التي غابها حسن ليجد موقفا للسيارة من بعد ذلك لم يعد اختلاءنا ممكنا وربما كان ذاك أفضل. نظرة خاطفة وبعض الجمل المتبادلة كانت كافية لتستنتج ما كان في قلبي من ألم. هكذا في ذاك اللقاء القصير بقيت أكثر الأسئلة كالعادة معلقة في حلقي لم أطرحها عليها بأكثر من نظرة لوم أو لمحة عذاب فلقائنا أنتهى كما جاء خارج الكلام والزمان.

وبعد أن دخل حسن البيت تتبعه أنت. فجأة ألتئم شملنا نحن الأربعة لأول مرّة منذ جاء محمد ليفسد كل شيء. فأي قدر بعثرنا ثم أعادنا وقد صارت أقدارنا متناقضة ومتفرقة ومعاركنا وأحلامنا متباعدة؟ كل واحد منا شعر بغرابة الموقف وعمقه فوقفنا اربعة أطرفا في معركة حب نخوضها بصمت. لا أظن أحد منا اراد العتاب أو النطق فقد كنا ننتمي الى بعضنا والى حقيقة حب واحد لا يلبس ذاكرته الا في مثل هذه المناسبات عندما تنطفأ الاضواء وتنضب الأصوات من الداخل. ومن خلف ضباب دموعي كانت عيناي تدرس وجوهكم الثلاثة أسألكم بسكون نفسي وأنتم ذاكرتي وأحبتي كيف سقطت هذا السقوط السّريع؟ أتراني أضعتكم بحماقتي لأبكيكم في غربتي حتى لحظة نفث نفسي الأخير؟ هل حقا لم أحافظ عليكم؟ من منا أعلن الحرب على الأخر؟ وكيف صدقت يوما أنها كانت تخاف عليّ من الزوابع وهي التي أوقفتني في مهب الريح تنفخ من حولي العواصف وتحرض القدر عليّ؟ وكيف لسنين لم

أتحرك وظللت واقفا بحماقة عند عتبة قلبها؟ لما لم أنتبه أنها كانت بهدوء تسحب الارض من تحت قدمي لأنزلق في أعماق هواية الفشل أمام نجاحها المضطرد؟ لا يا سيدتي أنني لن أسمح لزوابعك ان تعصف بيّ مرّة أخرى .

ولكن سرعان ما عاد الهرج مع وصول جدّك ومن ورائه جدّتك وكأنهما كانا يتبعنا على الطريق فأزال دخولهما الارتباك عن أوجهنا هكذا بمسحة يد كما تضع المرأة زينتها. وجلست محاطا بأحبائي كطائر على فرخه يخشى ان يحلق بأجنحته ويطير وعيناي تتنقلان بفخر من محيا حسن الى محياك الساطع ولولا الكبرياء لبكيت في تلك اللحظة لشدة سعادتي بكما. كنتما بتلك الوسامة والعنفوان المخيف الذي لا تفسير له سوى بكلمة الشباب. في ذلك اليوم الاستثنائي المليء بالفرحة والخيبة اكتشفت أنكما قد غدوتما رجلان فارعا القامة فصيحا العينان مهذبا المنظر تتحدثان بحماسة وعناد وخفة ظل ّ أميل الى الفكاهة فاعترفت بأن نائلة قد أحسنت تربيتكما. لقد نجحت نجاحا باهرا بينما فشلت أنا الى ابعد الأعماق. وجاءتنا القهوة وتشعب الحديث الى الأمور اليومية وترتيبات الحفل.

11

مرّ حفل تخرّج حسن على خير وسلام. اكتظت قاعة الأندلس بالعشرات من الأقارب وعدد كبير من أصحاب حسن وأصحابك أنت وهيء اليّ أن كل طلاب الجامعة قد حضروا لكثرة الشباب وحدة الغناء ووسع حلقات الدبكة. حاولت بأقصى جهدي أن أقوم بدوري العائلي الملزم به كأب وكانت تلك فرصتي لألعب دور الأبوة أمام الناس بكل مسؤولياته وواجباته ذلك الدور الذي لم أوفق فيه كما وفقت نائلة. بتوازن عقلها كانت تنجح في كل امتحان تتعرض له في الحياة. بدري في صبيحة اليوم التالي للحفل والساعة بعد لم تتعد السابعة، عاد محمد من منزل خاله وملئ البيت ضجة وهو يسأل أمه بأصرار، " أين أبي؟ ماذا جاب ليّ؟ أين هديتي؟ أين هي بسكلتتي ذات العجلين؟"

أيقض صياحه وبكائه كل من كان لازال نائما في البيت. ورغم محاولة أمك وجدتك تهدئته الا أنه كان منفعل وليس في راسه الصغير غير سيرة الدراجة ذات العجلين. بضعة دقائق فقط وكما توقعت، دفع محمد باب حجرة نومكما أنت وحسن، وقد بثّ ما تبقى من تلك الليلة أنا وجدك فيها، وكالعفريت الصغير ركض مسرعا وقفز على السرير الذي كنت أنا فيه وقعد على بطني يسألني باهتياج، وهو يتأملني بأمعان، "بابا! بابا! أين بسكلتتي ذات العجلين؟ بابا! بابا! أين بسكلتتي ذات العجلين؟ حمراء أنا اريدها حمراء؟ لن أقبلها أذا لم تكن حمراء."

أرتجّت أعصابي وأرتعش كل بدني لهول صدمة رؤياه بهذا القرب وشعرت وزنه عليّ أطنانا. أزداد خفقان قلبي وأخذت ضرباته تدوي في صدري حتى هيء اليّ أنه سيقفز من قفص أضلعي وبدأت أتصبب عرقا. كان شعوري بجرح ذكورتي العميق وعقدة مهانتي

لوجوده أمامي بذاك القرب. أصابني اضطراب عظيم تمرّ بي مشاعر كثيرة متضاربة عن الكره والاشمئزاز أفقدتني صوتي وفكرت بماذا سأفعل؟ هل أرميه عن السرير الى الأرض أم أضربه ليسكت أم أخنقه فأرتاح من وجوده؟ ولكن كالعادة كانت نائلة خلفه لترعاه من غضبي فنادته بصوتها الأمر من شق الباب، "حمودة تعال هنا وأترك أباك وجدك ليناما. البسكليتة ذات العجلين التي أحضرها لك أبوك مخبأة عندي. تعال خذها ودع أباك يرتاح."

سألني الولد وهو يدرس وجهي ولا يفهم ما جرى لهّ، "صحيح؟ لن أقبلها أن لم تكن حمراء!"

فأجبته بذهول بهزة من رأسي وأنا رافع الحاجبين وجاحظ العينين لست واثقا من شيء سوى رغبتي الشديدة لاختفائه عن وجهي.

تهدلت ملامح الولد من شدة سروره وفرحه لذلك التأكيد فهو معتاد على سكوتي في حضوره. فقد محمد مباشرة اهتمامه بي ليبدأ انشغاله بما قالت أمه فهبط عن السرير وهرول مسرعا نحو ها وخرجا ليتأكد بنفسه ويبدأ مشاريع أخرى قد أعدها بذهنه منذ مدة. كانت نائلة قد أشترت الدراجة الحمراء ذات العجلين من سوق أربد وأخفتها عن محمد بانتظار عودتي ليشعر الطفل أن أباه جاء له بها.

مرّت صبيحة نهار السبت بمشاغل عودتي والتقيت بصحبي القدامى وحاولت عدم الاختلاء بك او بأخيك خوفا من نبش الدفاتر القديمة أو أحراجي بالأسئلة ولم أتعلم النسيان لأطبقه على من أحب. وبعد أن اشتريت السيارة لحسن، رغم الحاح نائلة علينا للبقاء حتي الغداء، سحبت نفسي وحقائبي من بيتنا وأتيت قرية اليرموك مع والديّ في تكسي أجرة لأقضي كم من يوم في الأردن. ولئن القدر قد شاء ففي عصرية ذات اليوم فاجأتموني بحضوركم الى دار جدك مع حسن في سيارته الجديدة وطبعا أحضر محمد ومعه دراجته ليتدرب على ركوبها. كانت أجد لعبه ولا أحد يستطيع أبعادها عنه. حين وصولكم كنت أجلس مع والديّ تحت شجرة التوت وأشعر بإرهاق غريب ووجع مبرح ينتابني بين الحين والحين منذ فترة ليست بالقصيرة. لما زرت الطبيب قال إنه إرهاق من العمل وأنني بحاجة لراحة فأنا، كما قال، لم أعد شباب وعليّ أن ابطأ عجلة الحياة. ولما تمكنت من الوجع فطنت لوجودكم أمامي فلملمت وقاري المنهار واعتدلت أكثر في مقعدي أتجهم وألوي شفتي من الألم الذي كان يأتي على فجأه. كان اجتماعنا الأخير في بقايا ذاك اليوم ما بين العصر والمغرب، حينما تتطهر الروح من قبضة الدنيا المادية ويمرّ الوقت بطيئا وسهلا. وكم كانت جلستنا تلك هنية ومريحة تحت ظلال التوتة الوارفة نحتسى القهوة ونأكل البطيخ والشمام في هدوء وحديث ممتع ونزّق محمد ولعبه بدراجته يضفي علي الجلسة ذاك الجو العائلي الأمن.

ولما أُشعلت نيران الغروب من أقصى الأفق الى أقصى الأفق وتجلت الشمس فوق تلال فلسطين الزرقاء في سجود خاشع لعظمة الشيخ بعل بعمامته البيضاء الثلجية تحت قبة سماء

الجولان اللازوردية، اختطفتني جرأة أفكاري بالأذى لأمك ومحمد من ذاتي فعدت الهويدا الى الماضي أهرب من الحاضر. أشعلت سيجارة ونظرت الى أمك بتركيز عميق أنعقد له ما بين حاجبيّ وأنا أحاول أن أرى فيها شيئا غير نفسي. من أين جاءني هذا الارتباك؟ تجمعت في الحلق أكثر من غصة منعتني من أن أفتح فيّ ولو ببنت شفة. شعرت بذاك الخنجر القديم اللذيذ المبهج يقطع في صدري ويزيد ألمي فالصدى في عينيها كان مشبوبا بمشاعر من السأم وظلال من الكدر. لابد أن وجهي قد فجأة بدى لها أكثر تعبيرا وشفافية ولما نفثت الدخان برق لمعان الشمس في عينيها ببريق أحمر جهنمي خاطف.

فجأة لم يعد لي القدرة على الجلوس معكم فنهضت وتركتكم تتحدثون لأخذ مشوار خلوي في مسالك اليرموك وألوانها وهواؤها ومياهها التي ذهبتها شمس المغيب. في خلوة تلك الجبال والربوع المنبسطة كان رباع صباي وأهلي. المشي هنا سهل على القدم فسرت هائما أسترجع ذكرى الأيام الخوالي والدنيا من حولي أحلام وردية. فتحت صدري للنسيم الذي يداعب شقائق النعمان والأعشاب تلتف حول الصخور وتتسلق الأغصان بين تلك الحقول التي تقبلها أشعة شمس المساء البهيجة وثمرات الرمان معقودة على الأشجار الزهرية كحبات اللؤلؤ.

مشيت حتى وصلت حافة الهاوية وتوقفت أنتحي بنهر اليرموك يجري في قاع الوادي عذبا ورقراقا والقي النظرات كمن يحسب الدهر بالأمنيات ولم يعد بمقدوره أن يحلم. وتساءلت كثيرا كيف غدى الماضي يتربص بي وانا الذي تحاشيت كل الطرق المؤدية اليه؟ ربما انني ضحية وهمي فقط؟ لماذا كل هذه الأسئلة ما زالت تطاردني بعناد الذي يبحث عن الحقيقة دون جدوى كرغبة تتموج بين حناياي هائجة عارمة؟ آه من هذا الوجع الذي يرافقني ويخرج الأنات من الفؤاد عنوة، ذلك القلب الذي كان بالأمس حصنا حصينا والآن قد خربت كل تلك القصور.

فجأة كان محمد ينادي من خلف، "بابا! بابا! ابعد أفتح طريق." وهو يسوق دراجته بصعوبة المتدرب المبتدئ ويحاول أن يظهر الشطارة بشقاوة صبيانية الى حد النزق.

أيقظني صراخه من صدى خواطري وتوجست شر مما سيأتي. ولما التفت خلفي كنتم جميعا تسيرون ورائي وكأنكم ترعون خُطايّ. فجأة كان جسدي متعب بنوبة مكثفة من الإرهاق البدني والعصبي فتجمد في مخي منظر محمد وهو يركض على شفي الهاوية ودراجته قد فلتت من تحته تنزلق بدون توقف صوب الأسفل السحيق. أصابني إعياء شديد أفقدني القدرة على ملاحقته وكان الولد ينظر اليّ بنظرات ضارعة مستنجدة وهو يصرخ، "بابا! بابا! أمسك البسكلية. أمسك البسكلية" وهو يجري خلف دراجته على شفى المنحدر يحاول الأمساك بها قبل أن تهوي الى أسفل الهاوية ويبتلعها النهر الجاري في قاع الوادي.

ولما وهج ذهني بالتفكير بدأت أفطن أن لابد أن أفعل شيئا، ولكن ارادتي سُجنت داخل نفسي المعقدة وأنا أنظره بشراسة وأتمنى أن يقع ذاك الربيب خلف دراجته ويتدحرج معها فوق القلاع والصخور ويهلك غرقا في النهر. كانت تلك أمنية حقيقية أكاد ألمسها. كانت الخواطر

الواعية تنقر ذهني ومشاعري بمناقير حادة جارحة وموجعة وسرعان ما أمتلأ كياني بالضجيج وأنا أأمر نفسي أن تتحرك لأزق محمد فيسقط في الهاوية وأتخلص من صورته اللعينة. ثم جاء من ورائي صياحك ثم صياح حسن تجريان صوبي، وكلاكما يقول، "بابا أفعل شيئا. أمسك حمودة. أسرع أمسكه." ومن خلفك كانت أمك وجدك وجدتك كذلك يصرخون وهم يسعون وكلكم تحاولون الوصول الى محمد قبل أن ينحدر خلف دراجته.

ولكنني لم أتحرك ونظرت متوسلا الى السماء طويلا. كانت صافية تتخمر بخمار الغروب القاني البديع، وصرت أتمنى لو تمطر وتتواطئ معي وتجرف محمد كعصفور مبلل الى بالوعة الهاوية. وكالعادة كنت أنت الأسبق من أخيك حسن، فشعرت وأنا أقف أمامك وكأنني أكشف لك عما يجول في خاطري. كأن أمنيتي فعلٌ فاضحا لم أحاول أن أخفيه عنكما وصار يكبر حتى خُيل الي أنكما لا تران مني سوى آمنيتي الشيطانية لهلاك أخيكما.

فجأة ارتبكت أمامكما وكان ذلك لأول مرة وأنت تحدق بيّ وكأنك تفتح صدري وتقرأ حرفا حرفا كل ما كان يصبو اليه فؤادي المعذب. كان في عينيك شيء من العمق والسكون الغامض وكذلك شيئا من الاشمئزاز والسخرية المكشوفة فسألتني بطريقة من يعرف الجواب سلفا، "بابا! أذهب اليه. لماذا تقف هنا؟ ان الولد سيقع في الهاوية؟" ولكنك لم تفصح بما كان حقا على طرف لسانك، "أنك تبغي قتله؟"

شعرت في تلك اللحظة أنك ربما كنت دائما تحقد عليّ بكل سنين عمرك التي غبتها عنك. كان ذاك إحدى طلعاتك العجيبة المدهشة والتي أخرستني لفترة فلم أكن أعلم بماذا وكيف أرد عليك فقد قلت ما كان الكل يريد قوله. لكن محمد، رغم صغر سنه، لم يكن بالحماقة ليحدر حافة الوادي السحيقة وبقي في مكانه يصرخ لفقدان دراجته التي اختفت في المنحدر السحيق. لما وصلته أمه، وكان محاطا بالجميع، هدأته وهي تعده أن أباه سيشتري له غيرها غدا. وطبعا أوفت نائلة له بوعدي.

ثم كان يوم الثلاثاء يتربص بنا جميعا ويضعنا أخيرا نحن الأثنان، أنا ونائلة، وجها لوجه في ذلك اللقاء الأخير الحاسم. في مساء اليوم السابق أتصل بي حسن على الخلوي يدعوني الى الغداء في مطعم المنقل على شارع أيدون وأصر أن الأكل سيكون على حسابه ليشكرني على السيارة التي أهديته أيها. لم يحلّ عنيّ أخوك حتى أخذ مني وعد شرف بأنني سألتقي به هناك في تمام الساعة الثانية ظهرا فكما تعلم رحمه الله كان الالحاح من طبعه. ولما قابلني في المطعم يومها قابلني بحرارة لم أتوقعها فسرتها بطريقتي الخاصة بأنها فرح طفل أعادوه الى أبويه من بعد فراق مرّ. كانت أمك حين وصولها معه هادئة كأنها مثلي قد أُخذت على غرة وفيما بعد أبدت أعجابا بأسلوب أبنها الذي قادها اليّ وهي مترددة جاهلة بما كان قد خطط حسن في رأسه. كان في ذلك اللقاء الغريب مع زوجتي شيء من اللامعقولية فقد وضعني أخوك في تلك الظهيرة بين العقل والجنون بين الضحك والبكاء. أيمكن لزوج أن يعيد علاقته بزوجته بعدما خانته. ورغم أنني لم أرسم لقائها ولكنني لا شعوريا توقعته فقد كنت وأنا في

سبيلي الى المطعم أشعر كمن كان يسير في نزهة جميلة بمفرده ثم أُطلق عليه الرصاص من خلفه فسقط ميتا دون أن يفهم ما الذي حدث. ولبضعة دقائق فقدت شهيتي للكلام وبقيت أمك كذلك مثلي صامتة. لقد أخرستنا الصدمة وكنا نفهم بعضنا دون كلام.

ولكن حسن كان معه من الحكي فوق ما يكفي لملئ الصمت فشكرنا شكرا حارا لاننا فعلنا كما طلب منا. كنت على وشك أن أقول شيئا عاما عندما أسكتتني صميميته فقد كان في أعماقه نقيا لم يتسلل اليه التلوث وهو يقول، "كم من السنين مرّت وأنا أتمنى أن أكون معكما هكذا."

وجدت في طريقته لبدء الحديث مع أبويه مباشرة بالصميمات شيئا مثيرا للدهشة وربما للتفكير أيضا. أهذا ما كان بوسعه قوله بعد كل تلك العواصف التي مرت بنا بعد عمر من الجحيم الذي عشته لوحدي منعزلا عنكم بمحض أراداتي. لقد كنت فخورا بحسن يجلس بين أبويه وذلك الحزن الغامض في عينيه وبدأت أفهم، هكذا مرة واحدة، أنني أحببته بتلك الطريقة العفوية كما نحب شخصا نعجب به. وكم أتمنى الآن لو أنني أكثرت من الجلوس اليه والخروج برفقته والظهور معه. لقد كان حسن شابا باهر الصفات والجمال الخلقي بتلك الطريقة القابلة للعدوى والانتقال عن طريق المعاشرة.

طوال وجبة الغداء كنت أرى أمك تلتهمه بنظراتها الشرسة ولا تأكل سواه. وكان هو يتحاشى نظراتها ربما مراعاة لي والأغلب لأنه لم يرد ان يفتح دفاتر العتاب المصفرة وأستمر بالحديث في الأغلب عن نفسه. رحت أبحث في ملامح حسن عن فرح ما، عن سعادة ما لأجد فيها الحجة القاطعة على أنه كان خلف كل ما قد حصل، ولكن لم يبدُ على وجهه الغض أي شعور خاص. وكأنه كان يدري بما أشعر ففجأة قال، "لقد طلبت من أمي أن تحضر معي الى المطعم لتختليا معا وتبحثا أمر هدنة بينكما أنتما الأثنان. نحن كلنا يا بابا نريدك أن تعود وتبقى معنا هنا."

بينما كان فيّ رغبة غريبة لأصدقه وأكتشف الحقيقة فقد كان من المعتاد أن تكون نائلة وراء كل شيء يحدث ليّ. لكن أمك تلقت كلمات حسن كرصاصة بالقلب وأحسستها على وشك ان تقول شيئا، ولكنها في أخر لحظة قررت الصمت.

أجبته بشيء من الدهشة "لقد كان ظني صحيح أذن؟ " فجأ أردت أن أجرح أمه بالصميم فقد كان بيّ أحساس غامض بأنني سأراها لأخر مرّة.

أضفت بغضب، "خططتما كل هذا معا! هذه أفعال نائلة؟ أما يكفي أنك خائنة..... لما لا تتركيني بالهم الذي أنا فيه؟"

غير أن الكلمات جفّت على لساني وخرس فوري قبل أن أنهي قول ما كان يثور بين أضلعي. في الحقيقة لقد ندمت لما بدى مني لإيلامها المعتمد لها وكان إيلام أبني يعزّ على أكثر من إيلام أمه. كان ذلك أقل ما يمكنني الأفصاح بعد كلما عشته من سنين العذاب بسببها.

أفقدت كلماتي الموجعة أمك الرغبة في الأكل وجحضتني باشمئزاز شديد لفضح سرنا الرهيب.

ولما صار بمقدورها الأجابة، قالت والشرار يتصاعد من عينيها، "خيانة أية خيانة تلك التي تقولها، يا رجل؟ من منا بادئها؟ لقد خنتني مع نسوة من كل عرق ولون. أما أنا فقد هفوت ولم أخنك."

جعل جواب أمك نظرات حسن حزينة فقد فهم كل شيء ولم يكن بحاجة للمزيد من الشرح. لماذا سكتُ على أهانتها يومها؟ لماذا لم أصفعها على خدها؟ كنت أنا لا أقل حزنا عن حسن، ولكن حزني كان فريد كخيبتي متشعب الأسباب غامضا كموقفي.

تحول غداؤنا فجأة الى وجبة صمت مربك تتخلله أحيانا أحاديث عامة متقطعة ومفتعلة كانت أمك تخترعها بفطرة أنثوية رأفة بأبنها لترطب الجو او ربما للمراوغة، ولكن عبثا.

قبل سفري إيابا الى دبيّ كنت أطمع بالحديث الى حسن على انفراد لأفهم منه، دونما الكثير من الأسئلة، مشاريعه وطموحاته، أن كانت له مشاريع وطموحات، فقد بدأت أشك أنه قد ورث طباعي. أردت أن أفهم منه إلى أي مدى كان قادرا على محو خيبات الزمان والعودة الى نفسه دون خدوش وجروح عميقة كتلك التي ذقتها.

لما طال السكوت بيننا تكلمت من باب المجاملة لا أكثر فسألته، "هل ستأتي معي الى المطار لتودعني؟"

كيف ليّ أن أعي حينئذ إن تلك الفكرة الحمقاء ستكون سبب كارثتي إلا مؤخرا في ساعات عزلتي الطوال.

أجاب وكأنه كان قد أعد نفسه لمثل هذا السؤال، "لا يمكن سأبدأ العمل في البنك غدا. ولماذا الوداع؟ هل له ضرورة؟ أنني أكره فكرة وداعك... أتمنى لو تبقى هنا بيننا وتعود جزء من حياتنا...الا يكفيك سفر وغربة؟"

ربما زاده رفضه مرافقتي الى المطار توترا وبدأت أشعر أن قلبه قد أنحاز الي. غير إن الأيام علمتني ألا أثق بأحد فربما كان حنين حسن، وربما حنينك أنت كذلك، الى أبوة كنتها يوما ما له وهو طفل لا يعدو الحلم.

أجبته وأنا أذرف الدمع وأحاول أن أضع شبح ابتسامة مواسية على شفتيّ، "لا أقدر."

كان حوارنا القصير ليس إلاّ جولة مكابرة وحديث رجولة تنعكس أعلامها وتقبل بلعبة المجاملة ومنطق الكبرياء الرجولي فنحن في النهابة لسنا سادة أقدارنا.

سألني، والخيبة واضحة على صباحه، "لماذا؟"

قلت بصوت منخفض، " لأنني مسافر يوم الاحد. يجب أن أعود عليّ التزامات للناس. لم يكن مقرر لي أن أبقى في الأردن أكثر من ثلاثة أيام."

وكما تعلم يا عزيزي نادر أبوك بقي في أربد على طول أسير للمرض.

تدريجيا، خلال أشهر أقامتي الجبرية في بيتنا، صرت أستعيد عاداتي الأولى قبل سفري الأول الى دبّي. كنت سعيدا بمرارة غامضة فقد تعودت على وجودك معي أنت ومحمد تقوم بأمرنا نالي الخادمة السريلانكية التي استوردتها أمك منذ سنوات وكانت في الحقيقة هي من رباك وربى أخيك. وكم كان ذاك الطفل الربيب مغرما بي. ملئ الدار علينا بشيطانته وحركته التي كانت لا تكف الإ أذا نام. كنت أشعر بشيء من الوحدة المفاجئة وهو يتركني لأقضي تلك الأيام الرمادية الطويلة التي أمضيتها بالمستشفى بعدما شُخص سرطان الكبد بيّ.

كان محمد الذي لم يتجاوز عمره الثماني سنوات لا يعي شيئا مما يدور حوله سوى وفاة أمه وغيابها النهائي من حياته. فصرت أنا محور لحياته يتوقع مني كل شيء، أن أطعمه وأن أختار لباسه، أن أقرر موعد ذهابه الى المدرسة وأكون في انتظاره عندما يعود به الباص. كان يجلس في حضني او يلتصق بي وهو يتفرج على افلام الكرتون على التلفزيون. كنت أصاب بهزة شديدة وترتعش يداي وأنا ألمسه لألبسه كنزته الصوفية الصفراء التي اشتريتها له وصارت المفضلة عنده. كان يلبسها كل يوم تحت جاكيته الاسود الصغير الذي تعودت أن البسه أيه غصب عنه صباح كل يوم كي لا يبرد في الحافلة او ساحة المدرسة. كنت أملك حجة حضوره وحجة غيابه، حجة موته وحجة حياته. كانت رائحة الموت تنبعث بقوة من حياته الفتية من بين طيات وثنايا بنطلوناته وقمصانه. كنت معه وبدونه معا، أشعر بنوبة حزن تشل يدي وتتفاقم بي رغبة غامضة للبكاء وأنا وحدي.

نعم يا عزيزي نادر، ماتت أمك وقلب موتها كل شيئا رأس على عقب واستبقاني الى الأبد في أربد. صحيح لقد منحها الموت حصانة ضد انتقامي وغيرتي وها أنا الآن لا أملك شيئا لأدانتها سوى هذه الكلمات المفعمة بكبرياء رجل يقف على حافة قبره.

صحيح إنه في النهاية فرغ البيت منها كما امتلأ بها يوما، ولكن لابد أن أعترف لك أن سعادتي بالعودة الى الماضي كانت تفوق حزني عليها وأنني كنت أشعر وأنا أستعيد الماضي

منتدى الكتاب العربي
arabworldbooks.com

وعاداته أن بيتنا صار يمتلئ بحضوري فيه لأول مرة وانني أستطيع أن أخلو لنفسي في ذاك البيت الفارغ منها.

لبضعة أسابيع كنت أعتقد أنني مزدوج الشخصية فأنا سعيدا بنفسي لذهابها بينما في آن واحد أنا تعيس على فقدان حسن وحزني عليه لن ينتهي. كم أرتعش بدني ولهثت أنفاسي لخطورة ما حمله اليّ الشرطي الذي جاء الى اليرموك من أخبار خطيرة ينعى بها موت حسن وأمه. من هول ما سمعت لبضعة من الثواني كان صدري بلا حرقة وروحي بلا صراخ عندما قال، "في صدام أمامي مع شاحنة في شارع بغداد تحطمت مقدمة سيارة حسن وأمه بجواره ثم انقلبت عدة قلبات ولهول الاصتطدام ولم ينج منهما أحد. البقية في حياتكم."

احتضنني أبي ّ ليشد من كربي، ولكنني تجمدت في مكاني أنظر بوجه الشرطي الشاب بحثا عن إيضاحات أكثر، أنتظره ليسمعني كلمات تقول بوضح مفهوم ما حدث. كنت على درجة من الانفعال والأحاسيس المتطرفة المتناقضة التي شلت تفكيري وجعلتني عاجزا عن التمبيز بين المعاني. توقف قلبي كما توقف الزمن يكور نبأ نعي حسن وأم حسن غصة في الحلق فلا أصرخ ولا أبكي فقد أُصبت بشلل الذهول وصاعقة الفجيعة.

كيف حدث هذا وكان ولدي لتوه أمامي يقف مخطوف اللون؟ كيف لم أتوقع موته ونظراته الآخيرة كانت تحمل أقصى معاني الوداع؟

لساعات تلبكت فلم أصمد في وجه نيران الثكل طويلا وصرت عاجزا تماما أن أفكر ما سأفعل. أصابني اضطراب عظيم وانزويت في ركن قصيّ من حجرتي في بيت جدك مفعما بمزيج من الانفعالات الغاضبة وكل ما أرى كان حسن وعيناه تحدجان في وجهي. وعندما بدأت البكاء كان صراخي أبكم ونواحي داخل صدري. حتى هذه اللحظة لازال صدي كلمات حسن الأخيرة تتردد في أرجاء هذه الغرفة وهو يقول، "لقد فات الآوان على كل شيء يا أبي الآن." قبل خروجه من المطعم تلحق به أمه دون أن يلقي أحدهما نظرة أخيرة صوبي.

بالواقع بعد ذهابهما أستيقظ في قلبي أحساس حزين مفاجئ طغى على بقية أحاسيسي وعكر مزاجي وشرع الأبواب للعواصف المرّة لتدوي في رأسي وأنا أندب ضياعي. في اليوم التالي، بعد صلاة الظهر ثم صلاة الجنازة في جامع اليرموك، وقفت على رأس صف الرجال أتقبل التعازي بأبني وزوجتي وتنبض بقلبي حسرة مشحونة بحزن لا يطاق.

ولدي الحبيب نادر لقد أنقذتني هذه الرسالة اليك من اليأس ومنحتني مشاريع لأيام فراغي وأنا أنسخها وأحاول ترتيب فوضى الأفكار والخواطر المبعثرة في رأسي. هذه الرسالة ستسمح لك ان تغوص أعماقي وتتجول في حياتي ودهاليز عالمي الذي بقي سري ومغلق دونك.

هكذا الدنيا دوارة لا تقف على حال. أنا الماضي الآن وانت المستقبل وأنني أصلي من أعماقي الجريحة أن تكون مزهرا ومزدهرا.